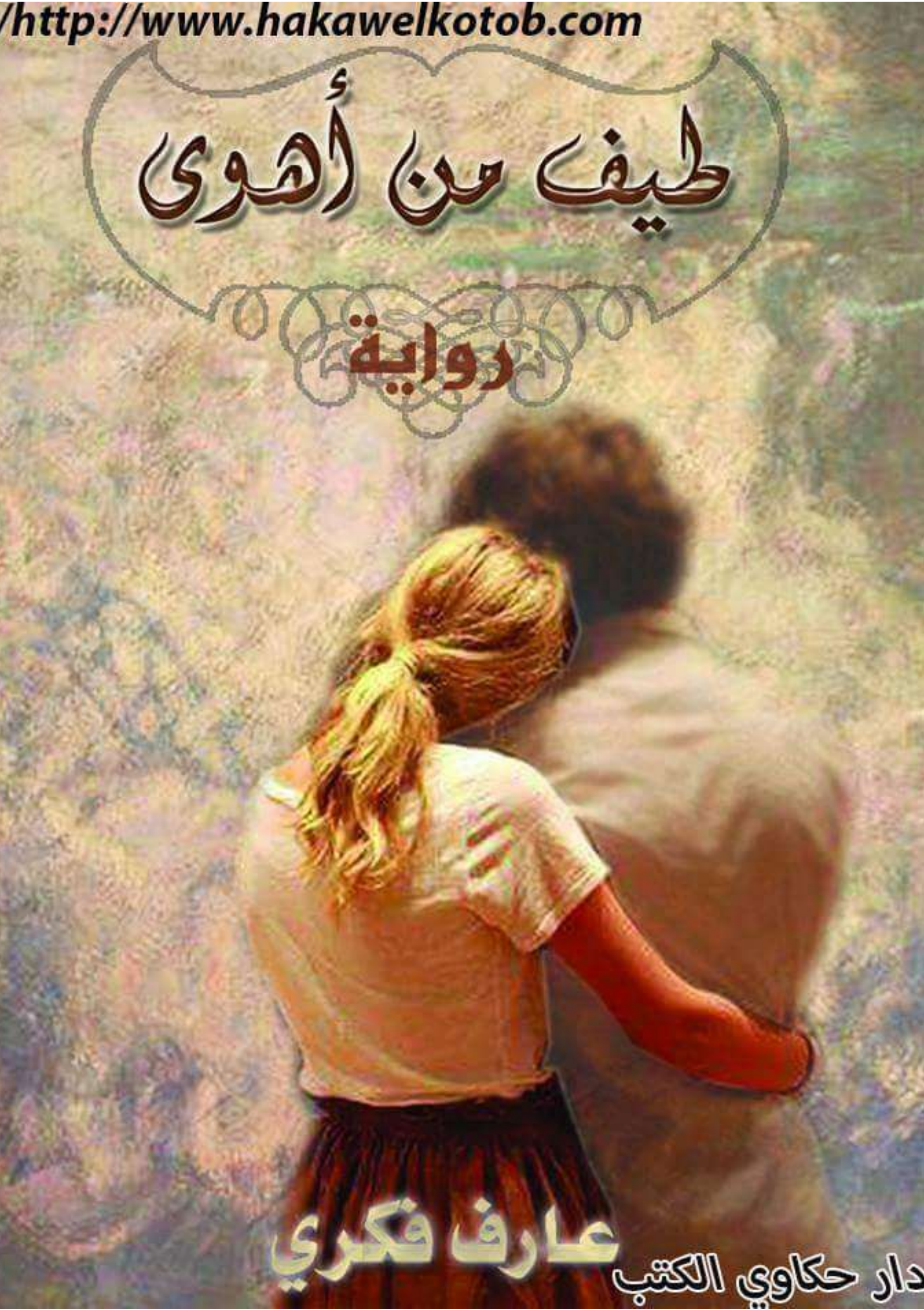

http://www.hakawelkotob.com
طيف من أهوى
رواية
عارف فكري
دار حكاوي الكتب


http://www.hakawelkotob.com
طيف من أهوى
تم النشر في ...
في دار حكاوي الكتب
FB.HAKAWELKOTOB.COM
الداخلي والتعبئة
نور الشام
حكاوي الكتب
1


نعم، سرى طيفُ من أهوى؛ فأرقّني
والحب يعترض اللذات بالألمِ
بردة البوصيرى

المقدمة

"لابد أن تخطو خطوة للأمام."

قال بذعر، وهو يحاول عقد رابطة عنقه:

"ماذا تعنين؟"

غمزت بعينها اليمنى:

"كله يعتمد على أول خطوة. لابد أن تخبرها بأنك تحبها يا بني. وإلا سيخطفها ذلك الشاب منك."

شعر بوجع في قلبه. قالت بنفاذ صبر:

"لا أعرف لماذا تجبن عن مصارحتها!"

قال بضيق:

"لا أعرف. كأنما يوجد حاجز خفي بعقلي يخبرني ألا أفعل."

نظرت إليه:

"هل تلتمس لجبنك العذر؟"

وهزتْ رأسها:

"أنت أحمق!"

طقطق بلسانه:

"لاحظى أنى أخوكِ الأكبر يا مها."

"ولاحظ أن قصتك قد طالتْ أكثر مما ينبغي. كُفَّ عن سلبيتك هذه. ستخسرها بتقاعسك هذا."
قال بضيق، وهو يجلس على طرف فراشه، بينما تدلت رابطة عنقه بإهمال:
"أليس من المفروض أن تلاحظ هي هذا أيضًا؟ أن ينبأها قلبها بذلك!"
قالت برفق:
" أنت ساذج!"
رمقها بضيق:
"مرة أخرى؟"
ضحكت:
"ماذا أفعل إذا كنت تصر على تكرار أخطاءك؟"
تمتم بيأس:
"وماذا أفعل؟"
مدَّتْ يديها إلى رِابطة عنقه تعقدها بمهارة:
"بدلًا من أن تحدق إلى وجهها كعادتك كلما جمعتكما مناسبة؛ أقبل عليها، وأخبرها بشعورك."
"ما هي ردة فعلها من وجهة نظرك؟ هل يمكن أن تتخيل أننى أحبها؟"
"سهام لن تقتلك يا حسام."
قال بقلق:

"هل تظنين أنها سترفضني؟"
"وارد جدًا. لكن على الأقل ستخرج نفسك من تلك الحلقة المفرغة. أنت تدور في فلكها بينما هي لا تشعر بك أصلًا. أي عذابٍ هذا؟"
"أنت على حقٍ."
دمدم بها، وهو يقفَ، وأخذ نفسا عميقًا، وحاول أن يسيطر على نبضات قلبه المتسارعة في صدره:
"سأفعلها."
ربتت على ظهره براحة يدها:
"احصل على قلبها يا فتى؛ فلن تجد رجلًا يحبها مثلك. أنت عملة نادرة في هذا العالم يا حسام."
اتجه إلى الباب، وقال:
"من المفترض أن أفرح، لكن لا أعرف لماذا أشعر بأنك تسبينني!"
ضحكتْ، وهي تقذفه بوسادة، تحاشاها بصعوبة، وهو يطلق ضحكة قصيرة.
غاب عن نظرها؛ فاختفت ابتسامتها، وتعكَّر وجهها، وهي تتنهد.

***

رؤيتها كانت كالحلم، لكن من قال إن الأحلام تدوم؟ من حيث لا يدري ظهر ذلك الشاب وهو يحمل كأسا

من العصير، وهو يقترب منها مبتسمًا. كان في إحدي الحفلات التي تقوم بها الشركة بين الفينة والأخرى بمناسبة عقد صفقة كبيرة، وكل مرة كان يحدث ما يجعله يتوقف عن الاعتراف بسره المشتعل بين جوانحه. كان أبوه يتبادل الحديث مع أحدهم بوقار عتيد كما هي عادته.

وجد نفسه يقترب منها هو أيضا، وقال بلهجة تمتليء بالحقد:

"رأيتكِ أكثر من مرة معه. هل الكلام معه ممتع لهذه الدرجة؟"

لم تنظر إليه حتى، ويدها اليسرى تداعب قلادة جديدة حول عنقها، لم يرها من قبل، وتمتمت:

"إنه طارق."

قال بتلقائية ملأي بالغيظ:

"أمِن المفروض أن يكون هذا سببا مقنعًا؟"

وضعت يدها على قلبها، في حركة تمثيلية، وهي تبتسم. لحظتها بدأت النار في الاشتعال بداخله.

تمتم بكلمات مغموسة في الألم:

"هكذا إذن!"

خُيل إليه أنها لم تسمعه أصلًا. وهي تشير إلى الفتيات. ربما كانت نبرة فخر في صوتها، وهي تقول:

"إنهن ينهشنه بأعينهن."
تمتم بكمد:
"لا أعرف لماذا."
لم تنتبه لحسرته، وهي تلتفت إليه بحماس:
"إنه رائع."
ثم قالت، وعيناها تهيمان في عوالم مجهولة:
"أتعلم هذا هو حلمي. أن يكون حبيبي هو فارسي. الحامي الخاص بي، إذا ألمَّتْ بي الأخطار. يمتشق سيفه، ويحارب الوحوش من أجلي، حتى لو كان سيفقد حياته!"
خطر له أنها حمقاء. إنها فتاة سطحية، تتعلق بشّاب وسيم، لكنه-كما يظن- فارغ المحتوى كبرتقالة مجوفة. شخص مثله، سينتهي الحديث معه بعد أول ربع ساعة، بعد أن يستنفذ كلامه. ثم هذه الأحلام السخيفة المتعلة بإنقاذها من الوحوش! هل هي معتوهة؟
على الرغم من أنهما يعرفان بعضهما من سنوات طويلة، إلا إنه لم يجرؤ ويفعلها. لم يجرؤ ويعترف بمشاعره. عضّ شفتيه في غيظ، وهو يتخيل نفسه في حجرة مغلقة، شبه معتمة، وهو يقوم بجلد نفسه بسوط ملتهب كالجحيم!

في تلك اللحظة كان الوسيم قد وصل إليهما، وهو يتحرك بخطوات رشيقة منغمة، وكأنه يرسم إيقاع موسيقي خاص به. تابعته الأعين، وأدرك بأنه نجم المكان بدون منازع.

ذلك الشاب لا يقع في منطقة برزخية في الوسط. إما أن يتم الانبهار به بشدة، أو يمقت بشدة. بالنسبة إليه كان من السهل جدا أن ينضم للطائفة الثانية بعد أقل من دقيقة من رؤيته إياه معها! خطر له أنه سيصعد في السلم الوظيفي بسرعة الصاروخ. أبوه يحب تلك النوعية تحديدا، وهو-للأسف-ليس منها.

عيناها تتسعان عندما صار قبالتها. شعر بأنه لو دفعها إليه؛ فلن تمانع مطلقًا. قدمته أولًا للشاب بكل بساطة:

"طارق. صديقي حسام."

هزّ خصمه الجديد رأسه بحركة لا تحمل أي معنى. نظرة جامدة على وجهه، برغم أن ملامحه تبعث على البهجة. كان وسيما كما يجب للوسامة أن تكون، ذو عينين خضراوين، وشعر كستنائي ناعم ورثه عن أحد أسلافه دون شك، بينما هناك لمعة مبهجة تظلل ملامحه، وتشع منه. خطر له أنه ليس من الغريب أنها انجذبت إليه. لكن الغريب هو ألا تفعل؟

قالت له، وهي تقدم خصمه بدوره:
"حسام. أقدم لك طارق."
وصمتتْ، وكأن هذا كاف، من باب أن كل لبيب بالإشارة َيفهم.
ولقد فهم!
فنظرة الفخر الممزوج بالسعادة في عينيها لا يمكن إغفالها؛ فطفل صغير يستطيع بسهولة أن يعرف أنها منجذبة إليه فعلاً. شعر بالنار تضطرم أكثر، وهي تلتهمه من الداخل.
"هل تبكي يا ِأستاذ حسام؟"
قالها طارِق، وهو يقرب وجهه منه؛ فتراجع:
"ماذا؟ لا طبعا. لابد أنها الأضواء الساطعة. سأغادر المكان. نسمة هواء لطيفة بالخارج سوف تريح عيني دون شكّ."
شعر بأنه ُسخِيف؛ لأنه قال ذلك. أنبأتْ نظرات طارق أنه لم يصدق هذا العذر. خطر له أنه يعلم. أي شخص محدود الذكاء والملاحظة يمكنه أن يعلم أنه يحبها . شعر بثقل يجثم على كتفيه، وهو يفكّ رابطة العنق التي شعر بأنها تخنقه. ثم وجد نفسه يضحك بمرارة، وهو يجلس على سور قصير يطلّ على النيل. من الواضح أن العالم كله يعرف أنه يحبها ما عدا هي!

لماذا يقع في حبّ فتاة لا تحبه؟ ما المنطق في هذا؟ أخبره قلبه أنه لا منطق هنالك، بينما انتابت عقله نوبة ضحك هستيرية. كان وجهه تغمره الكآبة وهو يحكي لها ما حدث. وجهها الصامت لا يقول شيء، أو أنه يقول كل شيء. بعد لحظة تمتم بضيق:

"كنتِ تعلمين!"

"كنتُ أعلم."

"لِمَ؟"

"لكي تستيقِظ من وهمك يا حسام. إنها لا تحبك؛ فلم تضيع وقتك فيما لا طائل من وراءه؟"

"رؤيتهما معا كانت تحرقني."

ربتت على خده برفق:

"بالطبع؛ فأنت عاشق."

تنهد، وهو يضع يده على رأسه.

"مالك؟"

سألته أخته بقلق. أشار لرأسه، وهو يقول:

"هذا الألم الكاسح يعود."

قالت بجزع:

"لماذا لم تذهب للطبيب؟"

"لأني أعرف سبب هذا الألم. إنه التفكير. التفكير المتواصل فيها دون جدوى. إنه قطعة من الجحيم."

نظرت إليه بإشفاق. قال بقنوط:
"ماذا أفعل؟"
أتاه صوتها الدافيء:
"تحتاج لأن تُصفي عقلك يا أخي. تحتاج لأن تخلو مع نفسك، وتتبصر الحقائق. تعرف أين تضع قدميك بالضبط."
"تشيرين بأن مشاعري تقف حائلًا من رؤيتي للحقيقة!"
"هو ذاك!"
"وكيف أفعل هذا؟"
"لا أدري. أنا واثقة أنك ستجد حلًا."
شعر بأنه عارٍ ، وأن قلبه ينزفُ أمام الجميع. مؤلم جدًا أن ينزف أمامهم، دون أن يحركوا ساكنا. خطر له أنها معركته هو على كل حال، وعليه أن يخطو للأمام فعلًا كما طلبتْ منه أخته.
والخطوة الأولى بدأت تُسفر عن نفسها عندما اقترح عليه صديقه رأفت الانتقال لمكان آخر. يحتاج لمنزل يختلى به بنفسه. كان هذا بعد مرور أسبوعين تقريبا بعد الحفلة.
"الخلوة أول طريق النور."
هكذا قال صديقه متفلسفًا.



أعجبه الاقتراح. على الأقل ِسيبدو أمام نفسه أنه يتحرك بالفعل. قال مفكرا، وهو يحكّ ذقنه:

"ابحث لي عن منزل إذن."

"سأفعل."

وقد كان. أعطاه رأفت العنوان، حيث أخبره بأن السمسار سيقابله أمام المنزل.

كان المنزل يقع على أطراف منطقة المقطم.

أخذ سيارة أجرة إلى هناك، وما أن ترجل عنها كان السمسار ينتظره. لاحظ أنه عندما وقِفّ أمام المنزل ذي الطابقين، أن ثمة نظرات حارقة مصوبة إليه من الجيران والمارة. يبدو أن المنزل معروف بسمعة معينة.

"لماذا يحدّقون إلي؟"

سأل السمسار؛ فضحك هذا الأخير ضحكة مجلجلة بدت له مفتعلة، وكأنه يغطي على شيء ما ذي رائحة كريهة!

"أنت تعرف فضول المصريين!"

"على أساس أننا من عالم آخر!"

ابتسامة صفراء على شفتيه الجافتين، أبرزت أسنانه التي لوثها التبغ:

"إنه بيت"لُقطة" يا أستاذ حسام. لن تجد مثله بهذا السعر الرخيص."

"وهو ما يُحيّرني يا معلم. ثمن بخس، في بيت كهذا؟"
"فلتقل إنه يوم حظك إذن."
وأشار للبيوت حوله:
"منذ أكثر من خمسين عاما كانت الحقول تنتشر هنا على مدي البصر."
تجاهل معلومته التي لم تعد مجدية على كل حال، وقال:
"صدقًا. أخبرني ما الأمر؟ ما الذي يجعل بيتًا كهذا بذلك السعر؟"
اربّد وجهه، وقال بقنوط، وكأنه أيقن من ضياع البيعة:
"البيت له سمعة مشينة."
ردد بحذر:
"سمعة مشينة؟"
"أنت تعلم مبالغات الناس عن العفاريت."
"آآآآآه! هكذا إذن؟"
قال السمسار بسرعة:
"لا داعي لأن أؤكد لك أنني لم أر ما يشير لهذا. إن هو إلا بيت قديم."
"من آخر من أقام فيه؟"
قال السمسار:

"فتاة تُدعي بسمة اختفتْ فيه منذ عام تقريبًا. لقد كاد جدّها يصاب بالجنون بسبب اختفاءها الغامض هذا."

بدا مترددًا. ثم قال:

"حسنًا. سآخذه."

نظرة دهشة على وجه السمسار:

"أأنت جاد؟"

"ولم لا؟ ليس شرطًا أن يكون اختفاءها مرتبط بالبيت مثلًا."

بعد لحظة صمت، قال السمسار:

"الأمانة تقتضي أن أخبرك أن كل من سكن فيه أكدَّ أنه مرتع للشياطين والعفاريت والأشباح!"

كاد يسأله عن الفارق بين التعريفات، إلا أنه آثر الصمت، وهو يستمع للسمسار الذي اتسعت عيناه بخطورة، وهو يقول:

"البعض يقول بأن المنزل ما هو إلا ثقب يؤدي للجحيم!"

***

"هل جننتَ؟"

مها تزمجر غاضبة، على الرغم من أنها كانت تُعدّ حقيبته بالفعل.

"وما الجنون في انتقالي؟"
"والداك سيعودان الليلة من السفر. ماذا أخبرهما؟"
"أخبريهما بأنني أحتاج لوقت أخلو فيه مع نفسي.
ألم تكن هذه نصيحتك؟"
"تخلو مع نفسك هنا، بيننا، وليس في بيت قديم
تسكنه الأشباح!"
ضحك:
"هل تصدقين هذا أيضًا؟"
"لن أطمأن عليك وأنت هناك لوحدك."
قال بمرح:
"تعالي زوريني إذن. سأتعلم الطهو من أجلك."
ضربته في كتفه بضيق:
"لا تمزح. أشعر بالندم لأني اقترحتُ عليك هذا."
همس:
"أريد الابتعاد. شاب مثلي منطوٍ على نفسه، ويحب
من طرف واحد في قصة ميئوسٍ منها. أي تعاسةِ
هذه؟"
رمقته بصمت. لم تكن تفهم كيف سيفيده ابتعاده،
لكنها تدرك شعوره جيدًا.
لم تسترح إلا عندما أوصلته بسيارتها. لم ترتح
للمنطقة القديمة، ونظرات الناس إليهما.

"كأنك خرجت من الدار للنار مباشرة!"
هزَّ رأسه بمعني:" فلتخرب مالطة إذن؛ فلم يعدّ يهمنى شيء!".

***

من الجميل أن تضع أخته لمستها الأنثوية قبل رحيلها. صحيح أن المكان نظيف، لكنه مقبض. معطّر جو قوي أزال بعضا من الكآبة التي تجول في ذرات الهواء ذاته. هناك روح ثقيلة تتحرك ببطء، تجثم على أنفاسه، ويشعر معها بأن نفسه تعاني. أي ألم يقبع في ذلك البيت؟
جلس في الصالة، أمام التليفزيون القديم ذي البوصات الأربعة عشر، وهو يبث برنامجا سخيفا أثار نعاسه.
لكن صورة سهام أيقظته من نومه عندما رآها في منامه تراقص غريمه اللدود.
كانا يرقصان تحت النجوم، وهما يبتسمان بسعادة، بينما هو في قفص من فولاذ، يجثو على ركبتيه، وهو يحاول الصراخ دون جدوى. ألم الخرس، وألم الفقد، وألم رؤيتهما معا!
عذاب مركب، بعضه فوق بعض!



عندما صحا-والعرق البارد يغمر وجهه-شعر برغبته في استنشاق الهواء. خرج للشرفة. تأمل الحديقة القديمة الذابلة. تحتاج للكثير من العمل.
سيذهب في الغد لشراء بعض الكتب التي تتحدث عن بستنة الحدائق. سيكون من المثير أن يعمل بيديه. خطر له بأن ذلك سيساعد على تهدئة نفسه المضطربة. وسيلة لإفراغ الطاقات المكبوتة. وهل توجد طاقة أقوى من طاقة الحب الذي لا رجاء منه؟
بدت له الأشجار كبشر، فقدوا أحباءهم؛ فانزووا بحزن طويل . هنا اعتدل في جلسته بتوتر. خُيل إليه أن ثمة من يتحرك وسط الأشجار.
كانت الشرفة في الطابق الأرضي، والأشجار تبعد عنه أمتار قليلة، ضوء القمر الفضى الذي يغمر الوجود يؤكد له أن ثمة من يتحرك. ابتلع ريقه. هل يمكن أن تكون تلك الشائعات حقيقية؟
قرّب رأسه، وكأنه يريد أن يتبين أكثر أبعاد الطيف الغامض الذي يبدو أنه يجلس على المقعد الخشبي القديم تحت شجرة الجميز العجوز.
في تلك اللحظة، حدث ما جعل القشعريرة تزحف على عموده الفقرى، وينتصب بسببها شعر رأسه



وساعديه؛ فقد تجمّد الطيف في جلسته، وكأنه يُفكّر في شيء ما، ثم راح ينتحب بصوت مكتوم!

***

2

"ستحبين المكان."
قالها أبوها بثقة، كأنما يعلم ما هو آت. لم تجد أمامها سوى ابتسامة باردة، دفعت بها إلى شفتيها. كأنه كان يعلم. بل لابد أنه يعلم. يبتسم هو الآخر، بإشفاق، ويتأمل ملامحها الرقيقة:

"الزمن كفيل بعلاج القلوب المُحطَّمة يا بنيتي."

"وهل للقلوب المُحطمة علاج يا أبي؟"

قال بذعر، وكأنما نطقت كفرا:

"إياك واليأس."

ضحكتْ ساخرة؛ فبدتَ ضحكتها فجّة لا تليق، وهي تقول:

"إنه مطلب يصعب تحقيقه عند المرضى بالاكتئاب يا أبي!"

ربما شعر بأنه لو حاورها طويلًا؛ فستنتقل إليه كآبتها؛ فحثَّ الخُطى للداخل، وهو يعطي توجيهاته في المنزل الذي تم بناءه على أنقاض مبني قديم، بل مفرط في القدم.

. كان ابنه الأصغر محمد يَرمق ما حوله بتأفف. كأنما يريد إرسال رسالة ما إليهما، قال:

"سيروق لك أنت وشقيقك."
تمتمت كأنها لم تسمعهَ، وهيَ تُدير عيَنيها في الحقول المترامية:
"الطبيعة هنا ساحرة!"
أسعده قولها؛ فٍابتسم. لكنه لم يقع في فخ الجدال. إنه يعرف ابنته جيدا. خيطٍ واحد يقوم بسحبه دون حذر، وسْيقع ٍفي شبكة تهويماتها التى لا يفهمها.
توقفت قليلاً أمام شجرة جميز صغيرة، بدت متفردة في مكانها، حيث نمْت جولها الحشائش والنجيل الأخضرِ. أشارت إليهٍا، وقالت:
"أبي. أريد مقعدا هنا."
أسعده طلبها. على الأقلِ هي تقفٍ بجواره فعليَاَ على الأرض، ولا تُحلِّق بعيدا عنه.
"فليكن."
كأنها لم تسمع. سافرت عيناها الحالمتان بعيدًا:
"سيكون من الجميل أن أقرأ هنا تحِت الأشجار."
ابتسم، وهو يشير للأفق، آخذًا نفسا عميقًا من الهواء:
"والنسْيم العليل. لا تنسي النسيم العليل."
ابتسمت بدورها، ثم واصلت طريقها للداخل بحماس، بنظرات مختلفة عما كانت عليه منذ دقائق.

ضرب كفًا بكفّ. كاد يقولها، لكنه أمسك؛ فهي ابنته، سواء أكانت مجنونة أم لا!

***

بعد منتصف الليل بقليل سمع نحيبًا قادمًا من حجرتها.

توجس شرًا، وهو يخطو بسرعة في الممر ذي الأرضية الباركيه. كعادته كان يسير بدون صوت تقريبا، كالأشباح، لكن ذعره جعل يحثّ السير نحو حجرتها مهرولًا. يضع دقات منزعجة على بابها:

"مريم. هل أنتِ بخير؟"

الآن يغدو النحيب أعلى صوتًا، وأقل وطأة. يدفع الباب؛ ليفاجأه وجهها المحمر الغارق في الدموع.

احتواها في حضنه:

"ما الأمر يا حبيبتي؟"

"لقد افتقدتها."

همس:

"أمك!"

"لستِ وحدك من تفتقدينها."

ثم قال بشجن:

"لقد عشتُ مع أمك أكثر مما عشتِ أنتِ؛ فألمي مضاعف إذن."

"هذا هو ما يؤلمني يا أبي. الأبناء يحشدون قدرًا من الذكريات عن آباءهم، وأنا لا. مجرد صفحة شبه خالية لم تُملأ إلا بأقل القليل. مجرد ذكريات ضبابية تتبخر كلما حاولتُ الإمساك بها!"

ضمها إليه:

"يا لتعبيراتك الأدبية يا مريم!"

قالت بحزن:

"لماذا لا أحتفظ بذكريات عنكما؟ كأنني أتيتُ من الفراغ! من كثرة ما حكيته عن أمي، بدأتُ أتعامل معه كأنه حدث بالفعل. لكني لا أتذكر حقيقة إلا عامها الأخير في هذا العالم."

همس في أذنها:

"أنت محظوظة؛ لأنك لا تتذكرين. حزنك الطاغي على فقدها جعلكِ تنسيَن. عقلك يحميكِ مَن الألم يا بنيتي!"

ثم تذكرٍ شيئًا، انبثق فجأة في ذهنه، وتشبث به:

"غدا؛ ستتحقق أمنية لك لطالما تمنيتها."

قالت هامسَة:

"هل ستعود أمي من الموت؟"

"الموتى لا يعودون من الموت يا حبيبتى."

تمتمت:

"للأسف."
لفّه حزنٌ طاغ للحظات. بددته قليلًا بقولها:
"ما هي المفاجأة التي ستقدمها لى؟"
"فلننتظر للغد، وسترينها بنفسك."
قالت بعناد طفلة:
"أنت تعلم أنني فضولية. سأظل ساهرة حتى الصباح، أتقلَّب على الحصى حتى أعرف ما تخبأه لي."
لمس فراشها الناعم برفق:
"هل هذا هو الحصي أيتها الجاحدة؟"
سلطت عليه نظرة حارقة، وهي تقول متوعدة:
"أبي."
رفع يديه، وكأنه يدافع عن نفسه ضد هجومها هذا:
"فليكن. فليكن. غداً سأقوم بعمل مكتبة ضخمة لكِ، في أكبر حجرات المنزل."
تعلقت بعنقه فرحة:
"حقًا؟"
تأمل سعادتها بحبور:
"حقًا."
فجأة، تلاشتْ فرحتها، وانسحبتْ بعيدًا، وهي تحدِّق إلى شيء ما. نظر إلى النقطة نفسها؛ فلم يجد سوى النافذة المفتوحة. قال مستنكرا:

"لماذا تركت النافذة مفتوحة! ألا تعلمين أن المنطقة زرَاعية، والناموس هنا مزعج."
أشارت للنافذة:
"ذلك الضوء! هل رأيته؟"
"أي ضوء يا بنيتي؟"
بدتْ حائرة، وكأنها تستجمع شتات اللحظة الفائتة:
"لا أعرف لقد بدا أشبه بضوء أزرق توهج للحظة!"
مسح وجهها بنظرة حذرة، وقال:
"أري أن نؤجل خطوة المكتبة قليلًا."
هتفت:
"لا تفعل!"
"أنتِ تحتاجين للراحة يا مريم، وقراءة الكتب قد..."
قاطعته:
"قراءة الكتب هي ما تجعلني أرغب في الحياة يا أبي؛ فهل تريد انتزاع السبب الأوحد الذي يجعلني أتشبث بها؟"
كأنما أسقط في يده، قال لنفسه، وهو يغلق النافذة:
"خياران أحلامها مر؛ مجنونة أو ميتة! فماذا تختار؟"
تمتمت، وكأنها تتحدث مع نفسها:
"الضوء غريب! ضوء أزرق غريب! أؤكد لك أنني رأيته يا أبي."

قبّل جبينها، وقال بحزن مشفق:
"تصبحين على خير يا نوارة قلبي."
غادر، وأغلق الباب برفق، وخطواته تنساب في العدم بلا صوت تقريبا. همست لنفسها:
"لماذا لا يصدقني؟ لماذا؟"

***

في الصباح راحتْ تقطف بعض الورود من الحديقة. كان النجار يقوم بتثبيت المقعد تحت شجرة الجميز الصغيرة. أبوها يراقب الوضع بوقار من نافذة شرفته بالطابق الثاني.
عيناه لا تغفلان عنها. يعلم أنها تذهب إليها في آخر جمعة من كل شهر لزيارتها. كان السائق ينتظرها بالخارج. برغم طول المسافة؛ إلا أنها قضتْ وقتاً في قراءة كتاب يتكلم في موضوع مفضل بالنسبة إليها. سألت السائق، وقد وضعت إصبعها الرقيق بين الصفحتين:
"هل تؤمن بالأشباح يا عم سيد؟"
قال السائق العجوز:
"تقصدين العفاريت يا هانم؟"
"الأشباح يا عم سيد. الأشباح."

غمغمتْ بها بضيق. لوهلة بدا أنه لم يفهم، ثم أشرق وجهه بعدها، وقال:

"أتقصدين ما سمعته عن البيت القديم قبل أن يُزال ويبني منزلكم الجديد؟ إنها إشاعات نسجتها عقول سكّان البلدة."

"عما تتحدث أيها العجوز؟"

"آه. يبدو أنني قلتُ ما يجب ألا أقوله. اعذري لساني؛ فهو يستحق قطعه."

هزتْ رأسها:

"أتعلم أننى لو حُبستُ في مكان واحد مع تلك الأشباح لابد أنى سأصاب بالجنون!"

كان من الممكن أن تتطور المحادثة، لولا أن السيارة قد توقفت في تلك اللحظة.

كانت منطقة المقابر تقع على أطراف منزلها الجديد، والذي يعدّ من أملاك والدها، لكنه لم يكن يزوره إلا نادرا وبمفرده ولفترات قصيرة جدا؛ نظرا لأنه غير مهيأ للسكنى إلا بالكاد، وإن كان البعض يزعم أنه يسمع منه بعض الأصوات المخيفة ليلًا. بعد وفاة والدتها، ودفنها بالقرب منه، صار من الطبيعي أن تكون بالقرب منها.

وكانت أمها هناك. في قبرٍ يعلوه شاهدٌ أبيض، وثمة شجيرات صغيرة زُرعتْ فوق قبرها.
غدت الآن أقرب ما تكون لشجرات مكتملةٍ، لكن ينقصها بعض النمو قليلًا. شكَّرتْ أبوها في سرها. لقد حول المكان لجنة صغيرة.
أمها كانت تحب الزهور والخضرة، ومنها تعلمتْ حبهما. الحقيقة أن والدها أخبرها بذلك، حتى غدتْ متأكدة من تلك المعلومة. تشعر بالضيق، لأنها ذكرياتها في البيتِ القديم ضبابية. إنها مزيج مما يحكيه أبوها، ومما يمر بذاكرتها الشبيهة بغربال. أشرفتْ على قبرها لوحدها، والسائق ينتظر بطولِه الفارع بجوار السيارة.
وضعتْ باقة الورد، ثم جثت على ركبتيها. كانت قد قررتْ في صباح اليوم أنها لن تبكي كعادتها. كل شهر تذهب، وتغمر الشاهد بدموعها الغزيرة، وشكواها الأليمة.
قررتْ ذلك الصباح أنها لن تفعل. لكنها لم تستطع. سرعان ما تعالى نشجيها في الفضاء. أنفاسها الحارة، مختلطة بخفقات قلبها المتسارعة، مع الدموع التي تسيل على وجهها الصبوح. فقط تتذكر مشهداً يبرز لها من الماضي القريب. أمها راقدة على الأرض، وهي تقول



بأسى، وابتسامة تضيء على وجهها المتعب، الذي يتهيأ للرحيل:
"لا عليك يا بنيتي. أنا أسامحك من كل قلبي."
وجَدت نفسها تنشج ببكاء عنيف.
عم سيد كان معتادا على ذلك، لكنها كانت أصعب لحظات اليوم عليه. هو أيضا يدرك طعم الفقد وألمه. أخرج منديلهِ المحلاوي العملاق ومسح به عينيه. بعد ساعة تقريبا كانت الدموع قد أُستنفذتْ من كليهما. أنفها غدا أحمر، بشكل أبرز بشرتها الصافية كالبلور، والسائق اكتفى بدمعتين فقط هي كل ما لديه. عندما كانت تنهض شعرت بشيء ما.
الحقيقة هو شعور يصعب وصفه. كأن هناك من يخترق ظهرها بنظراته الحارقة. شعور بعدم الأمان، وبأن خصوصيتها تُقتحم بدون إذنٍ!
التفتتْ بشكل غريزي للخلف؛ فلم تجد أحدًا. فقط بعض الزائرين لأحباءهم. أجالتْ البصر فيهم. كلٌ منشغلٌ فيمن خسره، ولا أحد يكترث بفقدها وألمها.
لعله الوهم!
فتاة مثلها متقلبة المزاج، مشتعلته، لن تندهش لو حدث لها هذا على كل حال.

لكن الشعور عاد في آخر النهار مزعجًا أكثر من ذي قبل. كانت الشمس تميل ناحية الغروب، تمسك بكتابها-وقد كانت في الربع الأخير منه-وثمة عمود يلقي مصباحه الضوء على الأشجار؛ فتستحيل المنطقة لأرض أشباح!

ظلال تنتصب، وكأنها تحرسها. تُقلّب صفحات الكتاب، وتجاهلتْ أسراب الناموس التي راحت تطن بالقرب منها. وجدتْ الوضع لا يحتمل، بعد مرور ربع ساعة من غروب الشمس، وكان من الممكن أن تنهض وتدخل للمنزل الجديد -الذي ترهبه لسببٍ غامض- لكن سيلًا من المشاعر هاجمها بدوره؛ مما جعلها تغرق في نوبة من الكآبة، وراحت تنتحب بصوت مكتوم، يقطّع القلوب!

في تلك اللحظة، عادتْ النظرات الحارقة من جديد تشوى ظهرها. التفتتْ ناحية الشرفة، وأمكنها-برهبة- أن تشاهد طيفًا تكسو الظلال ملامحه يحدق إليها بعينين حمروايْن في العتمة، وهنا أطلقتْ صرخة تردد صداها في الخلاء المخيف!

***

3

كنتُ أعلم أنك ستُجنَّ في نهاية المطاف."

قالتها أخته وهي تقوم بإعداد الغداء.

قال مبتسما:

"بالمناسبة يمكنني أن أعدَّ لك أجمل وجبة، وخاصةً أننى مكثتُ أكثر من أسبوع هنا. الوحدة تُعلّم المرء الاعتماد على نفسه."

ضحكت:

"طهوك سيء يا أخي العزيز. ربنا لا يتفوق على سوءه شيء عدا وجودك بهذا المنزل، واختيارك لفتاة لا تحبك!"

اربدّ وجهه، وتمتم:

"وكأننا نختار من نحب!"

لمستْ وترا داميا دون قصد. حاولتْ أن تمحوه بمرحها، الذي بدا عاليا ومفتعلًا أكثر مما يجب. لكن بعد قليل بدأتْ حدتها وخوفها عليه يعلوان بتلقائية. أعجبه ذلك. على الأقل هو يعلم أنها حقًا تحبه. حبا حقيقيا غير مشروط، يجرى في العروق، وتعضده صلة الدم، وتلاقح الأفكار، وحنانها الطبيعي، وكأنها أم رءوم تخشي عليه الدوائر، وملمات الدهر.

"أنا متأكد مما رأيتهِ يا مها. كانت فتاة تنتحب، ثم نظرت إلى، وراحت تصرخ!"
تجاهلت قوله.
"والداك لم يعجبهما ما فعلته."
تجاهل قولها بدوره.
"أمعقول أن يكون هناك أصل لما يتردد هنا عن هذا البيت؟"
تذوقتْ الحساء، ثم قالت وهي تخفض من درجة النار:
"لا يوجد دخان بلا نار."
"لدرجة تجعلني أرى ذلك الشيء؟!"
"أنت شخص حالمٌ؛ فلن أندهش لو كان هذا يدور بعقلك فقط."
قال بضيق:
"فلتقولي إني مجنون وحسب."
ابتسمت بخبث، وهي تغمز بعينها اليمنى:
"أنت أخي. لن أقول هذا طبعا. مقولة كهذه كفيلة بجعل الفتيات تبتعد عنك."
ضحك:
"لا حاجة لي في ذلك؛ فهذا يحدث تلقائيًا أيتها الماكرة."

أمسكتْ سكين المطبخ، وجلستْ أمام الخضروات المغسولة بعناية:

"لا تقلق يا أخي الحبيب. فتاتك موجودة في مكان ما في هذا العالم."

جلس قبالتها، وقال بقنوط:

"وماذا لو لم توجد؟"

قالت:

"أنا متأكدة من هذا. لكلٍ منا نصفه الآخر في مكان ما، وإلا ما هو جدوى تحرقنا للبحث عن شخص ما؟"

لم يعجبه قولها. مراوغة، وبرغم حبها الشديد له-الذي لا يشكّ فيه-لكنه يعرف أنها ليست صريحة معه دوما، وكأنها تخشى على قلبه الأخضر من أن يتلف.

شرعت في تقطيع الخضروات، ثم توقفت بغتة.

سألها:

"ما الأمر؟"

"هل تسمع هذا؟"

"أسمع ماذا؟"

"هذا الصوت، كأنه دقات. أنصت."

"لم..."

"ششش! أنصتْ"

ركّز سمعه. بالفعل هناك دقّات. دقّات.

"من أين تأتي هذه الدقات؟"
"لا أدرى."
"اليس من المفروض أن تعرف خبايا بيتك الجديد؟"
"إنه بيت قديمٍ يا مها."
"وهذا أدعي أن تعرفه جيداً. أليس من الممكن أن يكون تحته مقبرة مكدسة بالعظام؟"
أطلق ضحكة مفتعلة، وكأنه يقول لها:" **دعابة سخيفة!"**
لكن مع تلك الدقات التي تسارعت وتيرتها بدأ القلق يغزو عموده فقره. الأمر يذكره بتلك القشعريرة عندما رأي ذلك الشيء الطيفي!
هل يكون هو؟
هزّ رأسه كأنه يطرد تلك السخافات من عقله.
غادرا المطبخ، وآذانهما تحاولان تتبع المصدر. قالت مها بدهشة:
"إنها دقات على باب المنزل."
وهرولتْ ناحيته وهي تطلق ضحكة قصيرة تسخر فيها من توهماتها. كان عجوزاً، رثِّ الهيئة، تبرز وجنتاه، وتعلن شفتاه المتشققتان عن جوعه الشديد؛ فبدا أشبه بهيكل عظمي تغطيه طبقة رقيقة من الجلد الجاف.
"جائع!"

لفظها بصعوبة شديدة، لم تجد أمامها سوى أن تفتح الباب له على مصراعيه:
"تفضل يا جدّي."
دخل المنزل ببطء، وهو يتفحصه بعينيه بوقاحة لم تعجب حسام، وجعلته يلوي شفتيه متذمرا.
أعدّتْ المائدة في دقائق معدودة، ومها تتحرك كنادلة محترفة، حتى أن أخيها قد هز رأسه متعجبا، بينما يجلس في الركن يرقب العجوز الساكن كتمثال.
فور أن رأي الطعام معدًّا نهض بهدوء أقرب للوقار، وجلس برزانة.
ثم تغيّر كل شيء في لحظة، وهو يمدّ يدين متسختين للطعام، وينقض عليه كوحش لم يذق الزاد منذ قرون!
نظرة مشفقة في عينيها، بينما مطَّ هو شفتيه باشمئزاز.
"رويدك يا جدّي؛ فالطعام لن يطير."
"أعلم أنه لن يطير، لكن وقتى محدود."
قال ساخرا:
"هل لديك موعد؟"
"شيء من هذا القبيل."
"هل تريد شيئًا آخر؟"
سألته برفق.

" فقط اجلسي بجواري. تذكرينني بحفيدتي."
"وأين هي الآن؟"
" اختفتْ، ولم يعثر لها على أثر."
قالها باقتضاب، وهو يزدرد قطعة لحم بعد ملعقة من الحساء الساخن.
"قلبي معك."
هزّ رأسه دون أي تعبير عن وجهه. بعد نصف ساعة انتهى من طعامه. وضع يده على بطنه، وأطلق زفرة شبع. ابتسامة رضا على الأخت، بينما أخوها ما زال يرمق القادم الجديد بتشكك.
"هل تنتظر الحلو؟"
قالها حسام بغلظة لم يستطع السيطرة عليها. أومأ العجوز:
"لا بأس."
"لقد كنتَ جائعًا منذ دقائق، والآن تطمع في المزيد؟"
قالت مها بضيق:
"حسام! عيب!"
"لا أستريح لهذا الرجل."



لكن العجوز لم يكترث. لم يتمعّر وجهه، أو يتغيّر من الخجل. فقط قال، وهو يشرب بقايا الحساء، برغم انتهاءه من الأكل فعليا:

"الإنسان بطبيعته راغب في المزيد."

ثم ابتسم ابتسامة بدت غير مريحة له:

"وكرمكم يغرى المرء بطلب المزيد."

هنا لم يحتمل. اقترب منه، وقال بغلظة:

"ماذا تريد؟"

قال العجوز بسرعة:

"أريد تحذيركم من هذا البيت اللعين. لن يسرنى أن ينتهي الحال بكما كما انتهى بمن قبلكما!"

"عما تتحدث أيها المعتوه؟"

قالت مها بعتابٍ:

"حسام! رفقًا بالرجل! ولا تطول لسانك عليه."

"لا بأس يا بنيتي. لا بأس. أخوك تأخذه حماسة الشباب وطيشه. لكنه أحمق مثل البقية. لن يكتسب خلاصة الحكمة مثلي، إلا بعد أن يرتكب كل الأخطاء الممكنة!"

ثم نهض؛ فبدا فارعًا حقًا. قال بصوتٍ بدا جهوريًا:

"لكننى هنا أقدِّم له فرصة نادرة. أحذره مما هو قادم. من الجنون الذي لن يقدر على موَاجهته. عن نهر الآلام الذي سينطلق في وجهه بكل قوته."

قال حسام بسرعة:

"أخبرتك أن فيه ما يقلق. إنه شخص مريب."

"صدقني يا بني. أنا أريد مصلحتك. اترك هذا البيت فورا، ولا تعد."

"وإن لم أفعل."

"سأضطر لحظتها أن أرتكب ما لن أكون فخوراً بفعله."

"آه. أنت تهددني إذن."

هز رأسه:

"أنت لم تفهمني. أنا لا أهدِّد هنا. أنا أقدّم لك خيارين، أولهما: أن تترك المنزل بدون رجعة."

أكمل باستهزاء:

"والثاني ماذا؟ هل ستقوم بإخراجي عنوة؟"

"إخراجك عنوة؟"

قالت مها:

"حسام!"

رمق العجوز بغيظ:

"ألم تفهمي بعد. إنه هو!"

"هو من؟"
"الطيف الذي كان ينتحب."
دمدم العجوز بضيق:
"هل رأيتَ أحدهم بهذه السرعة؟"
صرخ فيه:
"لا تدعّ البلاهة يا رجل. إنه أنت! أنت من كنت تلجأ لتلك الخدعة السخيفة لسبب لا أعرفه. تجلس على ذلك المقعد الخشبي وتنتحب كالنساء! بل صوتك كان يشبه صوت فتاة بالفعل! هل هناك من يريد شراء المنزل بسعر أعلى مثلًا؟ لحساب من تعمل؟"
مرة أخرى يهز العجوز رأسه، وهو يغرق في خواطره الخاصة، ثم قال بصوت بطيء متعب:
"أنتما لا تفهمان. هذا البيت يغيّر حياة كل من يسكنه. الحمقى الذين كانوا يسكنون فيه من قبل لم يدركوا هذا إلا متأخرا، وقد دفعوا ثمن حماقتهم هذه غاليا. ليست لديكم فكرة عما أجنبكم إياه."
قالت أخته بتشكك، وهي تجيل بصرها بين الرجلين المشدودين كسهمين يتأهبان للإنطلاق:
"لعلك مخطيء يا حسام!"
قال في عناد:

"لا أعتقد. لا توجد عفاريت أو أشباح في هذا العالم البائس. يوجد أصحاب المصالح مثله، من يريدون أن يستغلوا خوفنا ورهبتنا من المجهول!"

تمتم العجوز:

"انتِ مخطيء يا بني. مخطيء على طول الخطّ."

ثم أخرج من جيب معطفه سكيناً طويلة، التمع نصلها الحاد تحت الأضواء. شهقت مها بخوف، متراجعة للخلف، بينما قال هو برهبة:

" ماذا ستفعل أيها العجوز؟"

قال بحزن:

"أفعل ما أنا مضطر لفعله يا بني."

ثم رفع سكينه، الشبيهة بسيف قصير، وقال:

"يؤسفني أن أذبحكما بعد طيبِ لقياكما، وكرم استقبالكما. لكنني مضطر."

ثم انقضَّ في حركة سريعة، تتنافى مع جسده الواهن، وعمره الكبير، وهنا تحركت مها بسرعة أكبر نحو العجوز.

الحقيقة أن حسام- الذي تجمدٍ من الخوف، وتوقف عقله عن التفكير- قد اندهش جداً من سرعة استجابتها، وهي تنتزع منه السكين الضخمة. هتف وهو يرتجف:

"أخبرتك أنه مجنون!"

نزعتْ منه السكين بصعوبة، والرجل يقاوم بشراسة.
التفتت إلى أخيها، وقالت بغضب:
"كُفَّ أيها النزق عن هرتلتك هذه؛ فقد كنت السبب في إثارة الرجل!"
دمدم العجوز، وقد لان تحت وطأة يدي مها القوية:
"أنتما لا تعرفان ما الذي أنقذكما منه أيها الأحمقان! اخرجا من هنا قبل أن تخسرا كل شيء، كما فعلتُ أنا من قبل."
هتفت مها، وهي ترتجف من الانفعال:
"ماذا تقصد؟ انطق!"
"في هذا المنزل فقدتُ حفيدتي بسمة من قبل! إنه مكان ملعون، لا أحد يخرج منه سالمًا!"

4

عندما كانت مريم تقف أمام النافذة المفتوحة، ترقب هذه الفتاة الفاتنة، وهي تخطر بدلال وقور بفستانها الأزرق، وقبعتها العريضة العالية متجهة لباب المنزل، ضاحكة من أنظار المحيطين بها، وهم يبدون كالمنومين مغناطيسيا، تذكرت قول أمها قبل رحيلها بأيام قلائل:
"أنتما قلب وقد انقسم لنصفين."
بعد القبلات والأحضان، حكتْ لها ما حدث.

"لابد أنك مخطئة يا مريم."
"أؤكد لكَ أني رأيته يا هند."
"طيف ذو عينين حمراوين."
أومأت برأسها:
"صحيح."
"شبح؟"
"لا أعرف. صدقيني لا أعرف."
بعد لحظة صمت قالت بمرارة:
"لا تصدقينني!"
قالت مترددةً:
"لا أعرف. لقد فقدت أمك مؤخراً، وأنا أعلم جيدًا قوة الرابطة التي كانت بينكمَا. حزنك يجعلكِ تتخيلين أشياء غير حقيقية."
قالت بضيق:
"مثل النور الأزرق. أليس كذلك؟"
قالت هند بسرعةٍ:
"أبوك لم ير شيئًا."
قالت بحنق:
"لأنه كان قبالتي، ومستوى نظره بعيد عن النافذة المفتوحة. كنتُ أتمنى لو كان قد لمح ذلك الضوء

الغريب؛ فقد يقيني مغبة الإحساس بالألم لأنه لم يصدقني."

ثم انفجرت في البكاء:

"لكن عندك حق. أنا أفتقدها. ولن أندهش لو كنتُ قد جننتُ!"

ضمتها هند إلى صدرها، وهي تربت على ظهرها. وهمست في أذنها:

"كل شيء سيكون على ما يرام يا صديقتي العزيزة. أشعر بهذا."

"أتمنى لو كانت عندي نفس ثقتك. ما أشعر به أن ثمة ظُلمة كاسحة قادمة، لا يمكن الفرار منها!"

تمتمت:

"لا تقولي هذا."

بحثتْ عن شيء في ذهنها حتى تخرجها من الكآبة الغارقة فيها حتى النخاع.

لفت نظرها شيء؛ فقالت وهي تمد يدها:

"مفكرتك. أليس كذلك؟"

مسحتْ مريم دموعها، وهي تقول بحسرة:

"لقد امتلأت عن آخرها. أحتاج لواحدة جديدة."

ابتسمت وهي تقول:

"هذا فأل جيد. منزل جديد+ مفكرة جديدة= حياة جديدة"

قالت هامسة:

"أكتب حتى لا أصاب بالجنون."

قالت بإشفاق:

"أما زلتِ توجهين رسائلك إليها؟"

"أجل."

تنهدت هند، ولم تُعقّب. ثم ربتت على كتفها:

"اكتبي يا صديقتي العزيزة. اكتبي؛ لعلكِ تجدين ما تبحثين عنه في النهاية!"

***

14 ديسمبر 2015

عزيزتي سهام...

اليوم قابلتُ تلك المرأة التي يسمونها" سيدة النور"! فبعد إلحاح دام لأسابيع من صديقي رأفت؛ وجدتُ أنه لا توجد طريقة للتخلص من ثرثرته إلا بالذهاب

لتلك المرأة الغامضة، والتي يدّعِّي هو أنها قادرة على معالجة القلوب المُحطِّمة!

"هل أنت أحمق يا رأفت؟ منذ متى يمكن للقلوب المحطمة أن تعود كما كانت من قبل؟"

سألته، وأنا أنظر إلى وجهه. مال نحوي، وقال للمرة الثانية أو الثالثة:

"أؤكد لك أنها امرأة مدهشة. إنها قادرة على علاج مشكلتك، والبحث عن حِل عبقرى كما فعلت معي."

قلتُ بتشكك:

"وما الذي فعلته بالضبط؟"

ابتسم بغموض:

"هذا سرّ بيني وبينها. لن أقوم بتزكيتها وترشيحها، إلا لو كانت واثقًا من قدرتها على إحداث فرق فى حالِتك."

قلتُ بضيق:

"حالتى؟ تتعامل معى كما لو كنتُ مريضًا!"

تنهد وقال:

"لا أقصد. أنت من كنت تشكو دومًا من قصةِ حبك الفاشلة، وذلك البيت الذي انتقلت إليه مؤخرا."

قلتُ:

"وهل تعتقد أن مشعوذة قادرة على حلِّ مشكلتي هذه؟ لا تنس أن هذا المنزل قد استأجرته بناء على نصيحتك."

"جرِب. لن تخسر شيئًا."

هززتُ رأسي:

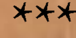
"سأخسر إحترامي لذاتي، وأنا أجلس أمام تلك النصابة، وهي تتلاعب بعقلي."

قال بلهجة مغرية، وهو يبتسم بمكر:

"وماذا لو كانت على حق؟ ماذا لو كانت قادرة بالفعل على إحداث فرق في حياتك البائسة؟"

ظلَّت جملته هذه تتردد في ذهني: في العمل وأنا أراقبها تتحرك في أروقة الشركة بنشاط، وأنا أتناول طعامي في منزلي البارد الصامت كقبر، وأنا نائم أتقلَّب على جنبي. الفكرة ما أن يتم زرعها بذكاء في عقل سامعها، حتى يكون خطرها أعظم من السحر! وهكذا وجدتُ نفسي أطلب رقم رأفت في الهاتف، وأقول له بدون مقدمات:

"أعطني عنوانها!"



كانت تقطن بفيلا صغيرة في ضواحي المقطم، تحيط بها حديقةٍ جميلة. يبدو أن الشعوذة مربحة جداً.
سمح لي البواب بالدخول، وبالداخل كان هناك عجوز في الثمانين، ذو ظهر محنى، ويدين معروقتين، وبدا منهمكًا في عمله؛ لدرجة لم تجعله ينتبه لوجودي، إلا عندما سقط ظلي بالقرب منه.

"ماذا تريد يا بني؟"

قلتُ مُحرجًا، وأنا أشعر أني أحمق يتم استدراجه لحلقة هزلية، تختفي فيها الكاميرا في مكان ما:

"أريد مقابلتها."

شعرتُ بالخجل أن أقول اسمها، ويبدو أن العجوز الخبيث قد أدرك محاولتي؛ فقال بمكر:

"من تقصد؟"

قلت بضيق:

"سيدة النور."

أشار لباب أخضر بدا متناسقًا بين الخضرة المنتشرة، في كل مكان، وقال:

"إنها هناك. خلف هذا الباب."

وابتسم:

"أرجو أن تجد ما تبحث عنه يا بني. بمعني أدق: من تبحث عنه."

هززتُ رأسى شاكراَ، الباب الأخضر ينتظر. باب مرسومٌ عليه تنين يطلق نارا، وثمة جملة مكتوبة بخط كوفى مبهر، ومع هذا؛ فلم أحاول قراءة كلمة واحدة منها. يبدو أنها محاولات فعّالة من أجل التأثير في الزبائن؛ ممن يأتون من أجل تحقيق أحلامهم. كانت محاولة ناجحة بالفعل؛ لأننى كنت أشعر بالرهبة والخوف. ماذا لو كانت قادرة بالفعل على إيجاد تغيير فى حياتي؟ وماذا لو كانت لا تقدر؟ في كلتا الحالتين قلبي لا يكف عن الخفقان. مجرد رسم سيناريوهاتِ تخيلية فى عقلى عن الأمر يجعلني متوترا.

ما الذي يوجد خلف الباب الموصد؟

أتمهل في خطواتى، أسير في الصالة الواسعة ذات السيراميك الأزرق الشفّاف، والذي بدا أن الضوء نفسه ينبثق من أسفله.

تأثير آخر عبقري. إنها امرأة تعرف جيدًا كيف تتلاعب بزبائنها من قبل حتى أن تراهم. هكذا يكون الناجحون! لكنها لم تكن امرأة. على الأقل ما بدا لي؛ فقد كنت أتوقعها خمسينية على الأقل.

من باب جانبي ظهرت فتاة عشرينية، ذات وجه صبوح مشرق خالٍ من أدوات الزينة، ترتدي بنطلون جينز أزرق، وبلوَزة من ذات اللون، وهي تعقص

شعرها خلف رإسها على هيئة ذيل الحصان، وترتدي حذاء بسيطًا لا يصدر صوتًا بالمرة. وكانت ترتدي قلادة لامعة على هيئة دائرة منقسمة لنصفين، أحدهما أسود، والآخر أبيض، وخطر لى إنه إكسسوار لإكمال هالة الغموض.

كانت تبتسم، وهي تقترب مني.

"حللتَ أهلًا، ونزلتَ سهلًا."

حدَّقتُ إلى وجهها؛ فقالت موضّحة عندما رأت البلاهة على وجهي:

"إنها تحية العرب القدامى."

كعادتى أهزّ رأسى متفهما، وإن كنت حقيقة أشعر بأني أدور في دوامة سخيفة من الأفكار، وأنا ألوم نفسي. أيا كانت الحقيقة-في كونها نصابة أم لا-فإنها قد حازت على انتباهي وانبهارى. ما أن يقع المرء تحت سيطرة الانبهار حتى يغدو إقناعه بأى شيء في حكم الممكن مهما بدا مستحيلًا!

سرتُ خلفها، وهي تتجه لحجرة جانبية. الصورة الأولى التى قفزت لذهني:

أننا سندخل لغرفة شبه خالية، حيث نجلس على الأرض، أمام إناء يعج بالبخور والفحم المشتعل. لكن ما حدث كان مختلفًا تماما.

كانت الحجرة عبارة عن مكتبة واسعة، تتراص الكتب على الأرفف المحفورة بالجدران، وهناك مكتب صغير من خشب لامع، وكان سطحه الزجاجي ينبعث منه ذات اللون الأزرق المريح.

خطر لي أنها امرأة مختلفة، مثقفة، وتعشق اللون الأزرق أيضا. ربما يؤكد ذلك سيراميك الفيلا، زجاج المكتب، وهذه القلادة التي تتدلى من عنقها، وفي نهايتها مثلث معدنى متساوي الأضلاع.

"بما أناديك؟"

سألتها، وأنا أجلسَ مبتسمًا.

رفعت حاجبها الأيسر:

"ألا تري أن لقب" سيدة النور" مناسب لى؟"

قلتُ بحيرة:

"إنه اسم جذّاب بدون شك، لكني لم أفهم معناه!"

ابتسمت:

"ستعرف معناه بعد انصرافك من هنا!"

ما معنى كلامها هذا؟

قلتُ في محاولة بائسة للسيطرة على فيض الأفكار بداخلي:

"يقولون بأنك قادرة على علاج القلوب المحطمة؟"

"وَهل صدّقت هذا الهراء؟"

أنظر إلى وجهها بحيرة. هذه الفتاة أو المرأة تقوم بتحطيم كل الصور الذهنية المسبقة عمن يزعمون قدرتهم على إحداث تغيير فى حياة الناس. إنها تبتعد عن كل ما هو مبهرج وجذاب، وتكتفى بتقديم صورة بسيطة ومختلفة. هل النصب تطورت أساليبه لتلك الدرجة؟

"ماذا تفعلين إذن؟"

سألتها بصوت هامس، وكأننى لا أريد أن أبدِّد تلكم الرهبة التى بِدَأت فى التسلل لِصدرى ناحيتها. الأكثر وضوحا هو الأكثر غموضًا على الإطلاق!

قالت برفق:

"أنا لا أحقق نهايات سعيدة، أو حلولًا سحرية؛ فقط أشير للطريق، أقترح، أهمس ناصحة في أذنيك، والبقية عليك."

"وماذا تقترحين فى حالتى؟"

"وما هي حالتك؟"

"ألا تعرفين؟"

"هل تعرف أنت؟"

أحدِّق إلى وجهها بحيرة متزايدة. ماذا تريد منى بالضبط؟

قالت بعد لحظة:

"قبل أن تتساءل عما أريد؛ فلابد أن تعرف أنت أولًا ماذا تريد!"

لم أكن أعرف. هل هي ضربة حظ، أو تخمين جاء في وقته، أم أنها بشكل ما قد قرأت أفكاري. قلت محاولًا السيطرة على انفعالاتي، وأنا أشير لصفّ ترقد عليه بعض الدفاتر ذات اللون الأزرق:

"ما هذه الدفاتر؟"

كان سؤالًا وقحًا؛ فما كان لي أن أداري ارتباكي بسؤال أحمق، لكنها ابتسمت في أريحية، كأنها كانت تتوقعه، أو أنه غير ذي بال؛ فقد قالت:

"أنت لست الوحيد الذي أتي إلي."

قلت بحذر:

"بمعنى؟"

"إنها قصصهم."

قلت بدهشة:

"هل تكتبين ما يحدث مع عملائك؟"

اتسعت ابتسامتها أكثر:

"هل ترى في هذا مشكلة؟"

نهضت فجأة، وقلت:

"هل تسمحين لي؟"

رفعتْ يدها بمعني:" **تفضل؛ فأنت ضيفي."**

تناولتُ دفتراَ من تلك الدفاتر. فتحته؛ لأجد لغة غريبة. هل هي الإنجليزية؟

"اللاتينيةْ."

قالتها ببساطة، وكأنها سمعتِ السؤال بقاع ذهني. قلت مرتبكًا:

"الآن فهمتُ سر ترحيبكِ؛ فلن أفهم شيئًا."

ضحكتْ؛ فأشرق وجهها حبورا. رحتُ أقلّب صفحاته، ووصلتُ للصفحة الأخيرة، وبدا لي أن ثمة كِلمتان في آخر الصفحة الأخيرة؛ فقلتُ متذاكيا:

"لابد أنه توقيعك. أليس كذلك؟"

هزَتْ رأسها. كان من السخف أن أخبرها بأن التوقيع سيكون بـ "سيدة النور" دون شكّ، لكنى أغلقتُ الدفتر، ووضعته في مكانه السابق وجلست. هل تكون حكايتي في دفتر هكذا ذات يوم؟

كانتْ سيدة النور تضع يدها أمام ضوء المصباح الصغير، وقالت بشرود:

"عندما نقفُ أمام الضوء نتحلل. نصير أطيافًا تُظهر خبيئات لأنفسنا."

أومأتُ برأسي كأني أفهم هذا الهراء الذي تقوله، ولا أعرف معناه. فجأة انتبهت لوجودى؛ فقالت وهي تفرك يديها:

"لم تخبرني ما بك."
"لم تخبريني أنتْ ما المقابل؟"
ابتسمَتْ:
"أنا لا آخذ نقودًا من عملائي. يكفيني فقط أن يحصلوا على سعادتهم المفقودة."
"حقًا ما تقولين؟"
أومأت برأسها:
"حقًا ما أقول، لكن هذا لا يعنى أنه الهدف الوحيد. ثمةٍ سبب آخر رئيسي أحتفظ به لنفسى."
قلتُ بسرعة، كأني قبضتُ عليها متلبسة بجرمها:
"أها! هذا ما خمنته."
لم تتلاش ابتسامتها. أدركتُ أننى لو ظللتُ للصباح محاولًا معرفته؛ فلن أعرف. فلأتقبل الأمر فحسب. لم أجد أمامى سوى أن أرمقتها بشكٍ جارف. قالت:
"والآن أخبرني ما الذي تشعر به؟"
قلتُ متنهدًا:
"لا أعرف. إنها أشياء كثيرة يختلط بعضها ببعض. مرارة الحب الذي لا أمل فيه، والشعور بعدم الأهمية، وتلك الفجوة القبيحة بداخلي، والتي تبتلع كل شيء دون أن أشعر بارتواء. أريد أن أحيا."
"وهل تستطيع أن تموت؟"

قلتُ بذعر:
"أموت؟"
هزّت رأسها برفق:
"من أجل أن تتعلم الحياة لابد أن تتقبل الموت.
تتفهمه. تعانقه."
"أى نصيحة هذه؟ لقد أتيتُ من أجل حلّ مشكلتى،
لا من أجل أن أتلقى منك نصيحة بالانتحار!"
ضحكت، وقالت بذات الرفق:
"ومن قال أنى أريدك أن تموت؟"
"ماذا تريدين إذن؟"
"مرة أخرى: ماذا تريد أنت؟"
"هل سنظلّ هكذا طوال اليوم ندور حول نفسينا في
ألغاز كلامية لا أول لها ولا آخر؟"
" فليكن. فلنبدأ من نقطة صلبة وثابتة."
قلتُ بحذر لم أدر سببه:
"وما هي؟"
"ألا ترى أنك قسوتَ كثيراً على العجوز؟"
قلت بدهشة:
"كيف عرفت؟"
قالت ببساطة، وهي تتراجع فى مقعدها:
"صديقك رأفت أنبأني بذلك."

"أليس من المفترض أن تستغلى هذا الموقف لصالحك؟"
ابتسمت بذات البساطة:
"أنت رجل ذكي، ولن تفلح معك هذه الألاعيب الصبيانية."
"أنت امرأة ذكية أيضًا. لكن ما علاقة هذا بما أريده. إنه مجرَد عجوز مخبول أراد إقناعي بأن البيت ملعون ولابد من مغادرته."
"وأنت لم تصدقه، بل وأبلغتَ عنه الشرطة."
قلت بغيظ:
"لقد حاول مهاجمتى أنا وشقيقتى. ماذا تتوقعين؟"
نظرة خرساء في عينيها الواسعتين؛ فقلت بعصبية:
"ثم إنه بخير. آخر ما وصلني عنه أن الشرطة أفرجت عنه. اتضح أنني لم أكن الوحيد الذي حاول تهديده بالمغادرة."
ابتسمتْ و لم تعلق. فقط مسحتْ وجهي بنظرة ثاقبة، وكأنها تنتظر منى أن أتكلم. قلتُ بصوت متحشرج على الرغم منى:
"مرة أخرى: ما علاقة ذلك العجوز بما أريده؟"
تجاهلتْ سؤالي، وفتحت درج مكتبها، وأخرجت منه مفكرة زرقاء، وقالت:

"أنت تحتاج لأن تعرف نفسك أولًا."
قلت بتشكك:
"وهل هذه المفكرة ستساعدني على ذلك؟"
قالت مبتسمة:
"بأكثر مما تتخيل. عليك أن تكتب عن نفسك، عن الآخرين، عن أحلامك وهواجسك. عليك أن تعرف ذاتك، وتصارحها بكل صِدق، وبدون أقنعة."
وتراجعت في مقعدها. قلتُ مكررا، وكأني أريد التوثق مما تقوله:
"هل تظنين حقًا أن هذه المفكرة سوف تساعدني في الحصول على ما أريد؟"
"من يدري؟"
تمتمت:
"صحيح. من يدري؟!"
تنهدتُ وأنا أشعر بخيبة الأمل. أخذتُ منها المفكرة، ونهضت متجها للباب، وأنا أعرف أننى قد أضعت وقتى مع تلك المدعية الغامضة!
ثم توقفتُ فجأة قبل أن أصل للباب. التفتُّ إليها، وقلت:
"على الأقل أجيبينى على سؤال واحد فقط، بدلًا من هذا الغموض المستفز."

"اسأل."

"ما هو الشيء الذي رأيته في الحديقة؟"

"تقصد من."

"تعرفين إذن؟"

بدت مترددة، بما يتناقض مع ثقتها الكبيرة، وكأنها ستفصح بما لا يجب الإفصاح عنه. ثم قالت، وقد هدأت ملامحها:

"أنت على حق. غموض بلا بصيص واحد من النور قد يؤدي لنتيجة عكسية."

قلت ممازحا:

"وأنتِ سيدة النور، وسيكون من المؤسف أن توصفي بالبخل!"

ابتسمتْ برقة فيما بدا لي على سبيل المجاملة، ثم قالت:

"كانت هناك فتاة تعيش في ثلاثينات القرن الماضي، اختفتْ في ظروف غامضة، هي وصديقتها المقربة. البعض يقول بأنهما قد قتلتا ودفنتا، والبعض الآخر يقول بأنهما اُختطفتا. تعددت الأقاويل، والحقيقة محجوبة."

تذكرتُ حديث السمسار عن المنزل. قالت سيدة النور مواصلة:

"لعلك لا تعلم أنها كانت تكتب مذكراتها في مفكرة كهذه التي بين يديك."

أجفلت فزعاً:

"ماذا؟"

ضحكت:

"لا ترتعب. لقد كانت خطوة موفقة جدًا عرفت بعدها من هي."

"وانتهي بها الأمر مقتولة! أليس كذلك؟"

قالت بخبث:

"لا تتطيّر. أي شِخص آخر سيقول إنك جبان. هل لأنك ستزاول طقسا كانت فتاة تفعله من قبلك بأكثر من سبعين عاما، يعني بأنكما ستنتهيان لنفس المصير؟"

شعرت بالخجل من نفسي. عندها حق. أومأت برأسي شاكرا، و هممت بمواصلة طريقي للخارج، لكنها نادتني.

"أستاذ حسام."

استدرت إليها متساءلًا.

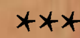
"أرجو أن يكون ما دار بيننا فقط في طي الكِتمان."

لم أفهم سبب طلبها، لكنني قلتُ مداعبا:

"المفكرة فقط من ستعرف."

قالت بجدية:

"أرجو أن يقتصر الأمر عليها فحسب، وإلا ستحدث عواقب وخيمة، نحن في غنى عنها."
نظرتُ إلى وجهها بحيرة متشككة تضاعفت عشرات القراريط. ماذا تخفين عني يا امرأة؟
تركتُ حجرة مكتبها، وتوجهت فورا لبيتي الجديد، القديم في ذات الوقت. امرأةٍ غريبة حقًا. كلما أحاول أن أتذكر ملامحها أفشل تماما. تتميع ملامحها، تغدو ضبابية غامضةِ، كسطح بحيرة تمسها موجة قوية من الرياح؛ فتتغير ملامحها. الآن أفهم سبب تسميتها بـ "سيدة النور"، ولابد أن تلك الخبيثة تعرف هذا جيدا، وتستغله لصالحها. في النور نرى الأشياء، لكننا لا نرى النور ذاته!
جلستُ في حجرتي، وها أنا ذا أدوّن تفاصيل اليوم، شاعرا بعدم جدوى ما أفعله. لكن من الطريف أن أوّجه إليك هذه الصفحات، وكأنك ستقرءين ما أدونه! يبدو أننى قد جننت! الآن سأغرَق في نومٍ عميقٍ! أو هذا ما أرجوه!



8 أكتوبر 1934

أمي الحبيبة...

أكره زوج أبي التي تُسمي سهير؛ فهي الشرّ المطلق بلا ظلال، المتجسد في هيئة بشرية من لحم ودم، وملامح فى غاية النقاء والجمال. لابد أن هذا ما خدع أبى. لا يوجد سحر أشدَّ على الرجل من سحر الجمال؛ به ينسى ما مضي، وبه يخطو حثيثاً لهلاكه.

أتذكر تلك الليلة جيداً. دخل أبي حجرتى، وهو يسير الهوينى كعادته، كأنما يقوم بحلّ مشكلة ما فى ذهنه أثناء سيره البطيء، لكنه-في الواقع-كان يحاول إيجاد حل لمشكلة إبلاغى بما انتوى عليه. كان هذا بعد انتقالنا للمنزل الجديد على أطراف المقطم بعدة أسابيع.

في البداية جلس على طرف الفراش. تأمل الكتب الموجودة على الكومود بجوارى.

"كُتب! كُتب!"

ابتسمت:

"إنها من الأسباب التى تجعلنى أحبّ الحياة يا أبي."
"القراءة جميلة دون شك."
كانت جملة باهتة، خالية من روح أبي وظرفه كما اعتدت عليه.
"أبي، ما الأمر؟"
التفتْ إلي:
"هناك امرأة."
"امرأة؟"
"أرملة فاضلة، قابلتها ذات يوم في النادي."
قلتُ بقلق له ما يبرره:
"ثم؟"
قال بحرج:
"هناك مشاعر بيننا."
تمتمتُ، وقد اشتعل شيء ما بداخلى:
"مشاعر!"
قال، وحرجه يزداد؛ بدا هذا من بضع قطرات من العرق نبتت على جبينه:
"أنتِ تعلمين أن بعد موت أمك..."
قاطعته بضيق:
"أمي لم تمت."
تنهد:

"أقصد بعد رحيلها المادي عن عالمنا الفاني يا مريم. ظللتُ فترة طويلة بمفردي. أنت لا تعرفين هذا الشعور القبيح. عندما يخلو عالمك من ذرة دفء، يغدو كئيبا، لا يُطاق."

قلتُ بصوت خافت:

"أحقًا لا أعرف؟"

قال، وهو يهرب بعينيه من وجهي:

"نحنُ على جانبين مختلفين تماما يا مريم. قد نتقابل في الألم، لكن نختلف في تجرع المرارة."

"ربما!"

"لم يحدث الأمر ببساطة كما تتصورين. لم يكن حبّا من النظرة الأولى. تلك الشرارة التي يتحدثون عنها أخذتْ شهورا حتى ولدتْ."

قلت بغيظ:

"ليس المهم كم أخذت من وقت حتى ولدت؛ لكن المهم كيف تركتها تولدَ أصلًا؟"

أشاح بوجهه كله تلك المرة:

"أنا رجل، والوحدة تقتلني."

كنتُ أعرف مقصده، وأتفهمه جيدًا. لكن بشكل ما بدا لي الأمر أشبه بالخيانة. كأنك يا أمي في مكان عَلوي الآن ترمقيننا بأسى. هل توجدَ دموع في العالم الآخر؟

أسئلة لن أعرف أجوبتها إلا عنِدما أرحل للأسف. منذ اللا حظة الأولى لم أحبها. شعرتُ بارتباك. كيف يقع أبي في حب امرأة لا أحبها، لا تتناغم روحها مع روحي؟ نوع آخرٍ من الخيانة، ومثل الخيانة الأولى؛ لها ما يبررها، وأيضًا أتفهمها. لكن أن يحدث ما حدث بعدها؛ فهذا ما لا يمكن غفرانه. كانت صورك معلقة بأرجاء البيت، فى الطابق الأرضي والعلوي. لا تفرض هيمنتك ووجودك، لكنها محاولة بائسة منا للتشبث ببقاياك.

روحك ما زالت تسكن الأثير. وذكرياتك-القليلةً للأسف-تعبق المنزل عن آخره. وما صوركَ إلا اللبنِة الأخيرة فيِّ تشييد قلعة الذكريات، وإدخالك في حيز مادي يمكّننا من النظر إليك، إمساكك، منَاجاتك، والحوارِ معكٍ منَ طرِف واحَد.

فعلتُ هذا مرارا وتكرارَا، وأنا أضع صورتكِ أمامي في ليالي الشتاء الباردة.

كنت تحكين لي حكايات قبل رحيلك بعام.

أعرف أنك كنت قارئة نهمة، ومن خلالك أحببتُ الحكاياتَ، وعشَقتُ الكتب، في سن متأخرَة. كأني أتواصل مع روحك منِ خلال هاته الرزمِ الورقية، والمجلدة بعناية. كنتَ تعدّين الطعامِ، في نفس الوقت الذي كنتِ فيه تُقلّبَين صفحات كُتيب صغير، وأنتِ

تقرأينه بصوت دافيء رخيم، ينقلنى لمملكة النوم السحرية! غريب أن يكون صوتك هو الذي ينيمني، برغم بلوغي، يقتل الكوابيس التيَ تزورني ليلًا، يبددها كأنها سراب أو أطياف غير مؤذية!

وإذن؛ِ فلم يكن من المفهوم في ِالبداية ما فعلته سهير . شهر مضى على اقترانِهما. شهر كامل ازدادت فيه كراهيتي. ما أن نجلس معا في مكانٍ واحد، حتى يبدأ الصقيع في غزوه، ونثر الكآبة فيه.

لا فائدة!

لن ننسجم أبدًا. وتأكد هذا لي عندما صحوتُ ذات يوم بارد؛ لأجد أن صورتك العملاقة-التى كانت معلقة بالبهو-قد انتزعت وَألقيتْ بإهمالٍ في الركن.

"عم سيد. عم سيد."

هرع العجوز ناحيتي مهرولًا.

"أوامرِك يا هانم."

قلتُ بعصبية:

"من الذي أنزل صورة أمي؟"

قال بحرج:

"الهانم الكبيرة."

أتانا صوتها الجاف، البارد:

"لستُ كبيرة لهذه الدرجة أيها العجوز الخرِف."

ثم أشارتْ للجدران:

"أحتاج لمساحات خالية من أجل تزيين الجدران."

ونظرت إلى وجهي:

" فليظلّ الماضي فى الماضى. من السخف أن نحاول إعادته للحاضر، ودفعه أمامنا لمستقبلنا!"

كانت رسالتها واضحة. شكوتُ إلى أبي؛ فبدا محرجاً. إنه ممزقٌ بيني وبينها. وعرفتُ أن أعظم كوابيسي قد تحققت. بدأتْ الحقيرة حملة واسعة لنزع الصور الباقية من كل مكان، وجمعها في مخزن قديم ملحق بفناء المنزل الخلفي، طارت تضرعاتي هباء، وبدأ والدي يذكر نفس حجج زوجه العقربة، حتى خلْتُ بأنه صار نسخة مصغرة منها. نسخة يتم التحكم فيها، وإملاء الأوامر عليها بشكل ناعم، لا يشعر معه أنه وقع في فخها.

ثم بدأتْ في التخلص من مكتبتي الضخمة، وإحراق كتبها في فناء المنزل، بالقرب من الحديقة. بكيتُ في ذلك اليوم كثيرا، ولأول مرة في حياتي أرغب في قتل أحدهم بشدة!

كانت حجتها الخائبة في ذلك أن الكتب تقوم بحشو عقلي بالخرافات، تفصلني عن العالم الواقعي الذي نعيش فيه.

عالم قبيح تعيش هي فيه، ما الذي تتوقع منى حياله؟ أن أتشبث به؟

وذات يوم عدتُ من الخارج؛ فوجدتُ أن حجرتى الخاصة، تم اقتحامها، وإخراج نخبة من أحب الكتب إلي، ثم حرقها بالقرب من رماد أخواتها، المسفوح دمها على العشب الذي لم يعد أخضر!

هذا مستوى آخر جديد من الشر والحقارة. صارحتُ أبي بمشاعرى المشتعلة كبركان. كنتُ أبكى، وأقذف بالشتائم في الوقت ذاته، دون أن أكترث لوجه أبي المحتشد بالدم، ربما من الخجل أو الغضب. لا يهم. بكلمات صارمة، تفيض بالسخونة والتقريع، قال بأنها زوجه، ويجب على احترامها. وكهذا غادرت المنزل، وقلبى محطَّم.

تحاشيتُ أن ألقي نظرة على جثث الكتب المتفحمة، وأنا أسير في الشارع بلا هدى. توقفتُ بشكل تلقائي أمام كشك لبيع الكتب.

الحقيقة أنني لم أره من قبل. ربما كان جديدًا، ربما كان إشارة لي بأن مرحلة التعويض قادمة. لكن مستحيل أن أعوض كمية الكتب المحترقة. لقد جمعتها على مدار سنوات؛ تلك العوالم الخيالية المسكونة على



ورق أبيض ناصع، أو أصفر مُحبّب. تلكم الكلمات والسطور والصفحات التي تنبض بحياة أبدية، لا تنتهي!
لكن من سوء الحظ أن الكشك كان شبه خالٍ. كانت هناك فتاة في العشرينات، جميلة الملامح، بدتَ منهمكة في تنظيفه، والعرق يتصبب على وجهها. لفت نظرة قلادة ترتديها، تمثل دائرة نصفها أسود ونصفها أبيض.

"من سوء حظك أن اليوم شديدٌ الحرارة!"

قلتّها على سبيل التحية؛ فابتسمت، وهي تلوح بيدها.

"على الرغم أن الشِّتاء على الأبواب"

"لم تبدأي في صف بضاعتك بعد."

قالت بصوت منخفض:

"المكان يحتاج لتنظيف أولًا. من القائل: ما أجل أن تبني عليك أن تهدم أولًا؟ ربما هو مولانا جلال الدين الرومي."

وهزّت الفتاة رأسها:

"إنه عظيم!"

قلت باهتمام:

"تجيدين الفارسية؟"

ابتسمت:

"لغة من بين أخريات."

ثم رمقتنى بعينين واسعتين:
"من الواضح أنك تحبين القراءة."
قلت بحسرة، وأنا أحاول أن أدفع صور الكتب المحترقة عن ذهني:
"أحببتها في سن متأخرة للأسف."
ثم نظرت إلي، وهي تتفحصني بعينيها:
"تشعرين بالضيق!"
قلتُ بقنوط، وأنا أهرب من نظرات عينيها الفضولية:
"أبحْث عن وسيلة لقتل سهير زوج أبي!"
ضحكتْ. ثم قالت، وهي تتناول مفكرة من رف مجاور لها.
" قتل زوج أمك لن يحل مشكلتك."
"وما الذي سيحلها؟ أنا أتبادل معها غصن زيتون؟"
أشارتْ للمفكرة:
"أن تُخرجي آلامك وأحلامك على الورق. هذا يساعد على إخراج الغضب الكامنّ بصدرك. إنها وسيلة ناجعة."
ضحكتُ، وأنا أقول:
" عمرك أطول من عمري. كنتُ أبحثُ عن مكان أشترى منه مفكرة جديدة بالفعل. أنتِ ترين ما خلف الحجب."

ابتسمتْ، دون ترد. نقدتها الثمن، وعدتُ للمنزل، ودخلتُ حجرتي التي غدت كئيبة، بعد أن تم تجريدها من عوامل البهجة. وضعتُ المفكرة على المنضدة أمامي.

لم أجد شيئًا في عقلي سوى مرارتي وحزني؛ ومن ثمّ فقد شرعتُ في كتابة ما سبق. الغريب أنني شعرت بالراحة.

ثمة شيء غريب سيحدث. أشعر بهذا جيدًا، وأخشى قدومه!

***

15 ديسمبر 2015

عزيزتي سهام...

اليوم رأيتُ ذلك الطيف مرة أخرى. أكادُ أُصابُ بالجنون. كنتُ نائمًا، وكانت ابتهالات الفجر تأتي من مسجد قريب. فجأة شعرتُ بمن يعبر في مجال بصري لجزء من الثانية. بدت لي كما لو كانت فتاة، وخُيل إليّ أن الوجه مألوف، وشعرتُ بحميمية غريبة معه. ذلك الشعور الغريب جعل الشعر ينتصب برأسي وذراعي،

وأنا أتلفت حولى بسرعة، يمينًا ويسارًا، بحثًا عما يؤكد ما رأيته، أو ينفيه.

في الحالتين الأمر غير مطمئن على الإطلاق. التحليل المنطقي يقول بأنها تلك الفتاة التي رأيتها من قبل. الفتاة التى كانت تكتب مذكراتها كما أفعل الآن. من هي، وما الذي حدث لها؟ وهل هناك أشباح حقيقية ترتع بالجوار؟

أسئلة أسئلة! الجنون يعبث بعقلي، ويرهق خلاياى الرمادية.

قلتُ لنفسي:

"لم لا أذهب إلى مصدر كل هذه الحيرة، وأسألها مباشرةً؟"

وغادرتُ منزلى الكئيب متجهًا إليها. قال بوّاب الفيلا:

"إنها ليست موجودة الآن يا بني."

"متى ستعود؟"

هز رأسه:

"علمى علمك."

قلت بتشكك:

"هل تفعل ذلك كثيراً؟"

ابتسم:

"سيدة النور ترحل، لكنها تعود في النهاية."

قلت بشرود:
"أرجو هذا."
وتركته، وأنا أضرب أخماسا فى أسداس. رحيلها المفاجيء أشعر أنه مقصود. إنها تضعني في قلب الغموض، تاركة إياي أواجهه بمفردي. لكن ما غرضها من كل هذا؟ ما الذي ستستفيد هي منه، بغض النظر عن كلامها عن حاجة الإنسانية المعذبة للسعادة، والوصول إلى بر الأمان، إلى آخر هذا الهراء الذي لن يقنع طفلا صغيرا؟!
سيارتي تنتظر أمام الفيلا، وكنت أسرع الخطى إليها عندما لاحظت بطرف عيني ذلك الرجل.
رجل طويل القامة بشكل مفرط، يرتدى معطفا أسود يكنس الأرض خلفه، وهو يسير ببطء تحت أشجار الصفصاف التى تميز ذلك القطاع من المنطقة، وخيل إلى أن عينيه تحدقان في بشكل ملح ومزعج. للأسف لم أتبين ملامحه جيدا من هذه المسافة.
توقفت، والتوتر يغزو كل عضلة في جسدي. هل أتجه إليه وأسأله، لكن ماذا لو كنت مخطئا؟ هل تتسبب تلك الأحداث المريبة والغريبة في إفساد قدرتى على فهم المواقف العارضة، والأحداث الصغيرة التى تحتمل أكثر من تفسير؟

فجأة، قفزتْ إلى ذهني صورة رأفت. لقد بدأ كل شيء عنده؛ فلينهه هو إذن!

***

كان الصديق العزيز نائمًا. يبدو أنني ذهبتُ إليه مبكرا؛ فأنا أعلم أنه ورديته الليلية تتركه محطما، جائعا للراحةِ وللنومِ، حتى أن ضوء الصباح الدافيء سيكون مزعجا له جدا. الحقيقة أن وجهي كان منزعجا أكثر مما حدث.

"حسام؟"

"من هي تلك المرأة الغامضة؟"

هرش شعره الثائر على جانبي رأسه:

"من؟"

نظرتُ إلى وجهه:

"سيدة النور."

أشرق وجهه، وهو يقول:

"هل ذهبت إليها؟"

هززتُ رأسي، وأنا أجلس على أريكتي المفضلة. قال بفخر، وهو يرتمي بجواري:

"هل اقتنعت أنها مدهشة؟"

سألته بدون مقدمات:

"ما هي مشكلتك التي قامت بحلها؟"

قال بحذر:

"لن أستطيع إخبارك."

هتفتُ بعناد، وأنا أنظر إليه بغيظ:

"ولم يا أحمق؟"

قال بعناد:

"لأنها أخبرتني بذلك. لو أخبرتك بمشكلتي؛ فثمة نتائج سيئة ستحدث."

"لقد أخبرتني بذلك أيضًا."

رفع يده اليمنى عاليا:

"لستُ على استعداد لخرق اتفاقي معها. من الخطأ أن نعبث معها!"

تمتمت:

"حقًا؟"

"لا أعرف سر حيرتك وضيقك."

انفجرت فيه:

"هل فقدت تقدير الأمور لهذه الدرجة! هذه النصابة تتلاعب بنا يا رأفت. ثمة شيء يحدث وراء ظهورنا، ونحن لا نعرف عنه شيئا."

"أعتقد أن الموضوع أبسط من ذلك."

"ألم أخبرك أنك أحمق!"

رمقنى بضيق:

"أفصح عن قصدك، وأعفني من بذاءاتك!"

أخرجت المفكرة من حقيبتى. نظر إليها، ثم إلي ببلاهة، وعيناه تفصحان عن سؤال لم ينطق به أبدًا؛ ففى دقائق كنت رويت له ما حدث. اربد وجهه، وامتقع، وراحت الألوان تنتمي لعالم الظلال، حيث راحت تتراقص على صفحة وجهه!

"مالك؟"

تراجع للخلف بذعر:

"لقد خرقت العهد. لم يعد الأمر آمنًا بعد الآن!"

هل أصابه الخبال؟

أمسكته من كتفيه:

"اهدأ يا رأفت!"

رفع إصبعه السبابة والذي كان يرتعد بشكل ملحوظ:

"ما كان لك أن تفشي سرها يا حسام! ما كان لك!"

تقاطيع وجهه الخائف، وعينيه الزائغتين لم تغادر ذهنى، حتى وأنا أنهي عملى في الشركة، بنصف ذهن، بينما النصف الآخر يمسح تفاصيل الماضى القريب والبعيد، في محاولة لرسم صورة تقريبية لما يحدث. الفضول هو اللعنة الكبرى؛ بها يروي المرء حاجته المتعطشة للمعرفة، وبها قد يلقى حتفه!

بعد العصر بقليل-وأنا غارقٌ في العمل، أنظر إليك من طرف خفي، وأنت تضحكين وتتكلمين بحيوية مشرقة-وجدتُ رقماً غريبا على شاشة هاتفى. وضعتُ الهاتف على أذني، وقلت بهدوء:

"من معي؟"

صوت يقول بأدب:

"الأستاذ حسام!"

قلت بقلق:

"أنا هو! من معى؟"

"نحن مستشفي (....). لقد استقبلنا أحد المصابين، ووجدنا رقمك في قائمة المقربين على هاتفه."

"من؟"

"اسمه رأفت عدلي"

***

كان رأفت نائمًا. وجهه الغارق في السكون يطاردني؛ فهل من الممكن أن يكون على حق؟ سوء حظّ جعل سيارة تقوم بالاصطدام به في نفس اليوم الذي حذرني من مغبة الحديث عما حدث معى مع تلك الغامضة التى تُدعي" سيدة النور"؛ فهل تكون صدفة، أم فعل ورد فعل؟

قال الطبيب، وهو يرمقني من خلف نظارته الطبية:
"صاحبك حسن الحظّ. لقد أُصيب بكسر في أحد الضلوع، وآخر في ساقه اليسرى، وتهتك بسيط في الطحال، لكن حالته الآن مستقرة، ونرجو أن يكون أفضل خلال فترة قصيرة."
قلت متوترا:
"أي تكاليف أنا متكفل بها يا دكتور."
"يبدو أنه قريب جدا منك."
أومأت برأسي.
"هو كذلك."
كمن تذكر قال:
"ثمة جملة قالها قبل أن يدخل في مرحلة التخدير."
انتبهت لكلماته:
"كان يقول: الرجل الطويل ذو المعطف الأسود! الرجل الطويل ذو المعطف الأسود! هل هذا يعني لك أي شيء؟"
***

20 أكتوبر 1934

أمى الحبيبة...

أنا أعيش فى عالم واقعي جداً؛ عالم يعجّ ببشر من لحم ودم، تسكن قلوبهم دفقات النور، وسحبٍ الظلام، ويسقطون كل يوم؛ منهم من ينهض مجدداً، ومنهم من يترك نفسه للهاوية. هذا العالم القاسى الجهيم لا توجد فيه خيالات قادمة من عوالم خفية، لا توجد فيه حوريات تحقق الأماني، ولا توجد فيه كلمات ملغزة تقوم بتحويل الواقع الكئيب لشيء أفضل! لهذا أقرأ الكتب، وأحلم، وأعيش هنالك متلمسة فرصة أخرى في عالم آخر لا يوجد إلا في ذهني!

أو ربما أحاول تعويض فقدك!

كنتُ فى حجرتى عندما سمعت دقّات هادئة واثقة على الباب. فتحتهٍ بحذر؛ ليطالعني وجهها الكريه. ملامحِها جميلة جداً، مرسومة بدقة بالغة، تعطى إيحاء طاغيا بالقسوة، والظلمة التي تنبعث مما وراء روحها.

"ما الأمر؟"

قلتها فى خشونة.

"أبوك متوعك بعض الشيء. إنه يريد رؤيتك."

قبل أنَ تنتهي جملتها، كنتُ أقفز للخارج متجاوزة جسدها الممشوق، الواقف بكبرياء، برداءها الطويل

الذي يشبه أردية ساحرات القرون الوسطى، لو كانوا يرتدون تلك الأردية.

"أبي. هل أنت بخير؟"

ابتسم في وهن.

"لا تقلقى يا حبيبتى. هناك بعض الآلام في معدتى. لابد أننى أكلتُ شيئًا فاسدًا."

"سأتصل بالطبيب. هناك واحد...."

قاطعنى، وهو يضع أصابعه على شفتي:

"لقد انصرف الطبيب منذ دقائق يا بنيتى. يقول إنني أحتاج للراحة فقط."

"فكيف لم أره إذن؟"

أجابنى صوتها الثقيل البارد كالثلج:

"لابد أنك كنت تغرقين نفسك في الكتب كالمعتاد؛ عندما أتىَ وأنصَرف. أخبرتك بأنها ستفسد عالمك وعقلك. وما أراه أنها فعلت ذلك فعلًا."

قلت ببرود:

"لم يتبق الكثير من الكتب؛ فقد قمت بحرقها."

لوت شفتيها باحتقار:

"هذا هو جزائي إذن! بسبب خوفي على مصلحتك، تقومين بمعاملتى هكذا!"

قال أبي بنفاذ صبر:

"ألا تملَّإن من الشجار؟"

بلعتُ لساني، وأغلقتُ عليه فمي. فقط قمت بمنحه قبلة على جبينه، ثم غادرت الحجرة متجاوزة جسدها الممشوق، الواقف بتململ، بِرداءها الطويل، وتلك النظرة الغريبة التى اشتعلت في عينيها الواسعتين!

***

كنتُ أنظر من نافذة حجرتى، أتأمل شجيرات الحديقة المحيطة بمنزلنا الأقرب لفيلا صغيرة تقع على حدود المقطم. نعم، أنا أقيم بها. منطقة برية، وهناك عبق يفعم الهواء، ورائحة بكر من أيام الخلق الأولي.
شعرت برغبة عارمة في الخروج، في اللهو، والسير على المروج الهوينى، وأن أغني. صوتي جميل بالفعل. يقول أبي أنني أغني أفضل من تلك المطربة الناشئة التى تسمي ليلى مراد، والتي ظهرت في الإذاعة منذ شهور قليلةٍ.
رحتُ أغني. بشكل ما لدي عشق غير عادى لبردة البوصيرى. جلست أدندن أبيات القصيدة، وتوقفتُ عند ذلك البيت الذي يقول:

نعم سرى طيف من أهوى؛ فأرقني



والحب يعترضُ اللذات بالألم!

أردده مرارًا، أستحلب ما فيه من أسرار، أنوِّع في آداءه، أبعث الحياة في كلماته، وخلالٍ عشرات القصص الر ومانسية أدرك أنه بيت حقيقى جدًا، حتى وإن كان قائله يقصد معنى آخر.

الحب؛ هل تعرفين ما هو الحب يا أمي؟ لابد أنك تعرفين؛ فقد كنت موجودة حين حدث ذلك.

كان هذا منذ عام َونصف تقريبا. فتاة غضَّة، ذات قلب بكر، لم يذقِ لوعة الحب بعد، وكان هذا يصيبنى بالجنون! كنت أشعر بأوجاع منتشرة بطول الروح، وندوب جافة متشققة، تنضح بالألم، ومع هذا لم يوجد أحد في حياتي!

تقولين لي، وأنت تُضفِّرين خصلات شعري، كما كنتُ طفلة صَغيرة لم تبلغ الخامسة بعد:

"لا أعرف لمَ أنت متعجلة!"

أقول بقنَوط:

"لقد اقتربتُ من الثلاثين على هذا الكوكب. ألا تظنين أنها فترة كافيةّ ليخفق فيها قلبي بشيء؟"

تهزين رأسك:

"إنه الحب. هل يوجد كتاب يشرح لك ماهيته؛ كيف يتحرك، كيف يشقّ طريقه إليك؟ حاول البعض؛ منهم من رجع بخفي حنين، منهم مَن اقترب كثيرا، لكنه لم يقدر على وصف ما يشعر به، ومنهم من احترق حتى صار غبارا تذروه الرياح."
"وصفك يحرك الجلاميد يا أماه!"

أقولها وأنت تبتسمين؛ فأنت تملكين نزعة أدبية شفَّافة، ومنك تعلمت حب ذلك السحر الذي تسرب لخلاياي حتىَ تشرب بها. على الأقل أنا أفهم قليلًا عن الحب الذي تتحدثين عنه، حتى لو كان مأخوذًا من قصتك مع أبي، أو من مئات الكتب التي قرأتها.

كنتُ أبحث عن شخص ما يكون مستعدا لاقتحام الأهوال من أجلي. شخصَ أكون أنا عنده مختلفة عن الجميع. ولم أكن أعرف هذا الشخص ربما يكون جاري، ولا أعرف بوجوده. كان شابا يسكن بجوارنا هو وعائلته منذ خمس سنوات تقريبا.

لم أنتبه إليه، ولم أره، وكأنه نبت من العدم فجأة!

سألتك عنه بشكل عارض فأخبرتني عن حكايته.

سيارة نصف نقل، تسبقها سيارة، تقف أمام البيت المقابل لنا، ويخرج منها بعضهم. كنت ترقبينهم بفضول من شرفة الطابق الثاني.

من حركاتهم وانبهارهم خمنت بأنهم قادمون من الريف. كنت أندهش من أولئك الذين يتركون الطبيعة الخلابة من أجل السكنى في مدينة مهما بلغ جمالها.
ثم رحت-أنت وأبي-تتعرفين على العائلة الجديدة.
كان لهم ولدَ وحيد يدعى حاتم. كان شابا حلو القسمات، طويل القامة. ذلك الشاب رأيته مصادفة ذات يوم بعد انتقاله بالقرب منا بعدة سنوات. كان يبتسم. ضوء الشمس المتدفق من خلفي كان يغسل وجهه المضيء، ومعه كان قلبى يمارس فعلًا لم يفعله من قبل إلا في خيالاتى، وما أكثرها:
كان ينبض، يدق على غير العادة، بشكل أسرع مما هو متوقع، وحرارة غريبة تنسكب في عروقى.
دهشة الحب الأولى. لحظة الميلاد الأولى. فقد مررتِ بها من قبل. أليس كذلك؟
وجهه صار حاضرا في ذهنى طوال ذلك اليوم، حتى أنكِ لكزتنى في كتفى ونحن نتناول طعام العشاء:
"ما الأمر؟"
قلتُ بشرود:
"إنه ذلك الشاب!"
هنا انتبهتُ لما أتلفظ به. لابد أن وجهي كان يحتشد بالدم. زاد احتشاد الدم أكثر مع تلك الابتسامة المليئة

بالتكهنات بينك وبين أبي. كيوبيد العزيز زارني، ورشق سهمه في قلبيَ ثم انصرف. كنتما-أنت وأبي-من النوع البسيط، تقدسان الحب، وتريان أن َسعادتي في هذه الحياة هي هدف وجودكما أصلًا.

كما ترين فإن الموضوع بسيط، ليس ميلودراميا، ولا يمتلىء بتلك المبالغات المعقدة التي تعج بها الروايات. لا داعي لذكر التفاصيل؛ فهي مؤلمة، تنبعث من رماد الماضي كالعنقاء، وألمها يكون قاسيا، كأول مرةٍ أو أشدّ.

تقابلنا عدة مراتٍ. ومنه عرفت تفاصيل مروعة. ورث أبوه مبلغًا محترما من المال عن جدّه المعمر، والذي تجاوز المائة عام. وهنا وجد والده أن الوقت قد حانٍ ليترك الريف للأبد. أخذ ذلك البيت الذي كان معروضا بسعر مناسب، وها هو ذا يبدأ حياة جديدة مع زوجه، وابنه الوحيد.

لكن هناك سرًا بين جنبات ذلك الفتى. أنه يحب شريكة طفولته، والتي صارت فتاة يافعة جميلة، لكن بسبب طباع جده الصارمة، ومشاكله مع أبناء القرية، صار القرب منه محفوفًا بالمخاطر.

لذا عندما تقدّم والده من أجل طلب يدها، رفض فورا. كانت هناك الكثير من المفاوضات تحطمت كلها على صخرة العناد. تزوجت حبيبته من قريب لها،

ومات جده بعدها. أخبرني بأنه ذهب لمثوى جده الأخير، وبصق على قبره، ولو أتيح له فعلها؛ لقام بنبشه، وحرق جثته!

أفزعني ذلك الغلّ المتبدى في صوته، والسواد الذي راحت ملامحه ترشح به!

شعرتُ بارتباك. أرقب طوله الفارع، وذلكّ الشيءٍ الذي تتموج به عيناه. كيف يمكنني أن أحب شخصا كهذا؟ لهذا انقطعت عن مقابلته. حاول السؤال عني أكثر من مرة، لكن أبي أجابه برفق أني مشغولة بشيء ما ضروري. ما هو ذلك الشيء؟ لا أعرف. لابد أن والدي قد وجد حجة مناسبة. ثم بعدها بفترة قصيرة علمت بأنه تزوج! لابد أنه قد فقد الأمل في.

ساءت حالتي النفسية، لكنك آزرتني، ووقفت بجواري، تحتضنيني، وتخبرينيَ بأن الغد أفضلَ.

اليوم قابلته مجدداً. بطوله الفارع، وذلك المعطف الأسودُ القديم، الذي يكنس أوراق الشجر اليابسة. هممتُ أن أناديه، لكنه التفت إلى في نفس اللحظة. وجه متغضن، علاه الهمّ والذبول، وقد فقدتْ عيناه حماسهما. بدا أشبه بجثة تتحرك بجواري، وأدركتُ أنه لم يتعرف علي.

الألم يعود مرة أخرى يا أمي. أحتاجكِ بشدة.



***

17 ديسمبر 2015

عزيزتى سهام...

لقد اختفت سيدة النور، وغدت الحقيقة عزيزة المنال، لكنى أرجو أن تظهر ذات يوم؛ لتميط اللثام عن هذا اللغز العجيب!

صديقى رأفت تكلّم اليوم. صحيح إن كلماته كانت واهنة بطيئة، لكنى كنت مسرورا أيّما سرور.

"لقد كاد قلبى أن يتوقف أيها الوغد!"

قلتها، وأنا أضرب كفه برفق. ابتسامة شاحبة تكونت على شفتيه، ثم وأدها رعب خفي:

"هل أمسكتم بالرجل الطويل؟"

قلت مهدئًا:

"لم نمسك به بعد. لكن الشرطة تبحث عنه."

"إنه يعمل لدي سيدة النور!"

هنا انتصبت أذناي.

"سيدة النور؟ كيف عرفت؟"

"لقد رأيته من قبل عندها."

هذه معلومة جديدة. قال بذعر:

"أخبرتك أن الأمر لن يمرّ على خير. تلك المرأة لا تعبث."

قلت بضيق:

"لاحظ أنك من ملأت الدنيا ضجيجًا حتى أذهب إليها. لا تلمني الآن."

"و هل أخبرتك أن تتكلم عما مرّ بك؟"

جذبتُ شعيرات ذقني بجنون:

"لا أعرف ما هو الفرق؟ هل هو عقد سري بيننا، ولا يجب أن يراه أحد؟ كف عن حماقاتك التى تتفوه بها."

أشاح بوجهه بضيق؛ فقللتُ من حدة كلامي، وأنا أزفر:

"ثم لا تنس أن الوضع معكوس هنا."

التفت إلي. لم ينطق بكلمة، لكن ملامح وجهه قالت الكثير. قلت مفسرا:

"المفترض أن يتم عقابي أنا؛ لأني خرقتُ اتفاقنا. ما ذنبك أنت؟"

كاد ينطق بكلمة ما ثم توقف. لابد أن حجتى قد ألجمته. ثم قلتُ برفق:

"المهم أنك بخير يا صديقى."

هزّ رأسه وابتسم. كنتُ أفكر في شيء واحد: لو كان المقصود هو إيذاءه؛ فلن تكون محاولة القضاء عليه في نهر الطريق هي الأولى والأخيرة. لابد أن ذلك الرجل الغامض سيحاول فعلها مرة أخرى. هذا ما علمتنا إياه السينما. هؤلاء الأوغاد يتعاملون مع مهامهم بنوع من التقديس المبالغ فيه، وكأن هذا هو هدف حياتهم ذاته!

وهكذا ترينني أجلس بجوار حجرته، وعيناي لا تكفّان عن التنقل بين هذا وذاك بتشكك.

حسناً كانت الساعة العاشرة عندما انطفأت الأنوار! تحفزتُ في جلستي، ووقفت، وسألتُ أحدهم بتوتر:

"هل أنتم متعودون على انقطاع الكهرباء هنا؟"

قال بلا مبالاة:

"إنه يحدث أحيانًا."

لم يطمأنني ذلك في الواقع. ألقيتُ نظرة على رأفت الذي يغطّ في نوم عميق، ربما بسبب المسكنات الذي تم حقنه بها. إنه لا يشعر عما يحدث حوله. لم أكن أعرف ما الذي يجب على أن أفعله. كنت أعلم أنني ربما كنتُ واهماً. أخلق خيالات في ذهني وأتصرف على أساسها.

أضيئت بعض المصابيح؛ فسرى ضوء باهت خجول في الممرات. لابد أنه مولد بائس يعمل في مثل هذه الظروف.

شعرتُ بصداع فتّاك يثقل رأسي. توجهتُ إلى الكافتيريا بالطابق السفلي. إنهم يصنعون قهوة في غاية الرداءة، لكنها تفي بالغرض على كل حال. قابلتُ أحدهم وهو يصعد لاهثًا على درجات السلم، وأنا أهبط لأسفل؛ فرمقته بإشفاق. عجوز، متهدم، بدا لي مألوفًا، لكن بسبب الإضاءةِ الشاحبة لم أتبين ملامحه جيدًا.

"قهوة مضبوطة."

قلتها للعامل؛ فأومأ برأسه دون أن يتكلم. أخذتُ الفنجان، وثمة شيء يحوم حولي كنحلة في جمجمتي، مصدرا طنينا يفوق الصداع ذاته! ملامح الرجل الذي قابلته على السلم تؤرقني. ومع أول رشفة وثبت صورة وجه معين قابلته منذ فترة.

البستاني!

جريتُ في الممر، وأنا أتجه إلى المصعد كالمجنون. أضغط على الزر، ثم تذكرتُ بأن طاقة المولِّد لن تكفي لتشغيل المصعد على كل حال. قفزتُ على الدرجات قفزا، وأنا أتساءل: كيف ولماذا؟

كان الوغد ينحنى على رأفت، وفى نفس اللحظة صرخت:
"إيِاك أن تفعلها!"
التفت إلي بشراسة، وهو يلقي شيئًا ما نحوي.
تفاديتها بسرعة لم أحسب نفسي أملكها؛ فأدركتُ أنها مزهرية بلاستيكية قبيحة موضوعة بجوار سرير رأفت!
انقضضتُ على العجوز، وأنا أمسكه من معطفه القديم البالي، وأنا أجز على أسناني في غيظ، وقد تذكرتُ موقفًا مماثلًا حدث من قبل، عندما هاجمنى عجوز آخر في المنزل منذ أسابيع قليلة. قلت بصوت محتقن من الغضب:
"ألن ينتهي المجانين من هذا العالم؟"
قال بغلظة، وهو يحاول أن يتملص من قبضتي:
"أنت أحدهم إذن؛ لأنك وضعت نفسك تحت رحمتها!"
"أنت تعمل بستاني في حديقتها أيها المعتوه!"
"من أجل حمايتكم أيها الأحمق! لا أفهم ما الذي ينقصكم حتى تلقوا بأنفسكم في غياهب الجنون؟ هل تظنون بأن السعادة يملكها بعض المشعوذين والغامضين؟ لماذا لا تبحثوا عنها في قلوبكم التعيسة أيها الأغبياء؟"

جذبته بعيدًا عن السرير؛ لنقترب من النافذة المفتوحة:

"ما هي إلا سفسطة عجوز مختل العقل، يتفوه بالترهات!"

ضحك، وكانت ضحكته مرعبة؛ لدرجة أثارتْ الرجفة في أوصالي وهو يقول:

"سيدهشك ما أنا قادر على فعله أيها الشاب!"

ثم قرب فمه بحركة حادة نحو أذني، وهو يتمتم:

"لقد كنتُ أحاول حماية صديقك مما هو آت؛ لكن بحماقتك هذه عليك أن تتحمل نتائج الأمر."

"الأمر؟ أي أمر؟"

ابتسامة ساخرة جافة على الشفتين الميتتين، ثم مال بجذعه ناحية النافذة المفتوحة، وهو ينقلب بمرونة. انفلت من بين أصابعي كالزئبق، وأنا أنظر من النافذة؛ فلم أجد أحدًا!

أعود لوقفتي، أرمق رأفت في نومته، والذي لا يدرك الجنون الذي يحدث بالقرب من سريره.

ماذا فعلنا يا رأفت؟ ماذا فعلنا؟

***

21 أكتوبر 1934

أمي الحبيبة...

عرفتُ أن حاتم-بعد شهر فقط من معرفتّي به-مُغرمٌ بالكتب مثلي، ويحب الرسم بجنون. تغصٍ حجرته بالكتب التى تتحدث عن كل شيء، وكنتُ أعلم أنه يرتاد المكتبات الحديثة والقديمة، بل ويقوم بتوصية بعضهم على إرسال بعض الكتب إليه من الخارج.

كان يقول لي، وعيناه تلمعان:

"الكتب. الكتب. كيف لا يُقدّر الناس عظمة الكتب؟"

أومأتُ برأسي بإعجاب. نشترك في حب شيء واحد إذن. ألا يكفي هذا لكي أقع في حبه؟ هو يبحث عن معنى. لا يختلف كثيرا عنى.

وإلا فأخبرينى: لماذا أتشبث بالعوالم الخيالية اِلتى تُبثٌّ وتُسطَّر على الصفحات البيضاء؛ لتغدو صخبا من لحم ودم في عقل من يقرأ؟

ما الذي يجعلني الآن أسطر تفاصيل يومي في مفكرة، وأنا أعرف جيدًا أنكِ لن تقرأيها؟

قال لي ذات مرة:

"كيف لم أرك من قبل؟ كيف لم ألمحك ولو لمرة واحدة، برغم أنك جارتي لسنوات؟"

كدتُ أخبره بنفس الشيء. مؤلم جدا أن يكون صنو روحك أمامك طوال الوقت ولا ترينه. أنت حسنة الحظ لأنك لم تمري بهذا الألم من قبل.

أليس كذلك؟

ذات مرةٍ كنا نجلس أنا وحاتم. كنتُ أدندن بقصيدة البردة، وكان يمسك مجلد أصفر اللون.

"لا تتخيلي كم قضيتُ من وقتٍ حتى أصل لذلك الكتاب!"

قلت على سبيل المجاملة:

"عما يتحدث؟"

قال بانبهار، وهو يلوح بيديه كالمخبولين:

"إنه يتحدث عن عالم آخر وراء إدراكنا المادي، يسمى عالم التماثيل الحجرية."

"التماثيل الحجرية؟"

ومال نحوي بشكل مبالغ فيه جعلني أجفل واتحرك متبعدة عنه. لكنه لم ينتبه لحماسه المبالغ فيه، وهو يقول:

"يُقال إن من كتب هذا الكتاب هي سيدة النور ذاتها!"
"سيدة النور؟"
"أجل."
قلت بضيق، وأنا أرتشف قليلا من العصير، والذي يعطيني فرصة البحث عن رد مخرس لجنونه هذا:
"هذا الطريق غيرّ مأمون العاقبة."
هز كتفيه:
"إنه الفضول فحسب."
"فضول سيوردك المهالك."
"أنا حريص."
الحرص لا ينفع فيما تجهل أبعاده."
"لست خائفًا."
"عليك أن تكون."
رمقني بمكر:
"هل تخافين علي."
أشحتُ بوجهي بعيدا عن عينيه الواسعتين المزعجتين.
على الأقل في تلك اللحظة.
إنه يسخر مني، يتهكم على حرصي وحذري، ولابد أنه يظن نفسه سيد الشجعان!

خطر لي وقتها أنه يحفر قبره بحماس. وقد صدق ظني.
بعد برهة من الصمت كان يبدو مترددًا.
"مالك؟"
"أريد مصارحتكِ بشيء. لكن أخشى ألا تصدقينني."
"قل."
"منذ عام تقريبًا حدث شيء ما غريب. كنتُ أقرأ في هذا الكتاب، عندما رأيتُ شيئا يشبه ضوءا أزرق مبهر في الأفق. كما تعلمين فإن لي حجرة منفصلة عن البيت تقع على سطحه. هرعتُ من حجرتي، ونظرتُ للشارع، عبر المساحة الواسعة فوق السطح؛ لأجد ما يشبه ضوءا أزرق قد توهج للحظة، وقد انسحب منه ظِلان."
قلت بدهشة:
"ظلّان؟"
"رجلان، شبحان، ظلّان. لا أعرف. ربما هي أوهام بصرية، وربما شيء ما خارق قد حدث في تلك الليلة."
قلت ساخرة:
"عندما قرأتَ في هذا الكتاب. أليس كذلك؟"
قال بعد لحظة، وهو يهز كتفيه:



"لا أنكر أن هذا قد مرّ بذهني. ربما نطقتُ بما لا يجب النطق به."

"ربما."

قال بحماس مفاجيء:

"الكلمات مثل السحر."

قلت بضيق:

"والسحر لا نعرفه، ولا نفهمه. غامض فقط."

"ربما هو يبوحِ بأسراره لي."

"لوِ كان ما تقوله صحيحا؛ فلابد أن والديَ قد رأيا شيئًا. لكنهما لم يحدثاني بشيء من هذِا منِ قبل."

"ربما لم يرياه. صحيح أنه كان قريبا جدا من منزلكم، لكن احتمال أنِ يكونا قد غفلا عنه وارد جدا."

كررتُ بعدم اقتناع بكلامه:

"ربما!"

حدثتك من قبل عن الضوء الأزرق الذي رأيته من النافذة فيَ المنزل الجديد؛ فهل معنى هذا أنه كان على حق، وأن ثمة ما يجري؟

ربما!

أخذتُ من الكتاب؛ فلمحتُ فيِ عينيه شراسة دامت للحظة؛ فقلتُ:

"أحميك من شرّ نفسك يا حاتم."
بعد هذا اللقاء بدأت لقاءاتنا تقل بسبب انشغاله في ذلك العالم، وفي المرات القليلة التي كنت أراه فيها كنت أرى تبدلًا مخيفًا في شخصيته. بدأ يميل للألوان الغامقة، وبدأ يضع قبعة على رأسه، ثم اشترى ذلك المعطف الكئيب ، وكنت أراه يخرج من منزله كثيرا. هل يكون قد انجذب لعالم الظلام كما توقعت فعلا؟
هل تعلمين شيئا عن ذلك الهوس بشيء ما؛ هوس يدفع الدم في عروقك، ويجعلك ترتقين الصعاب من أجل الوصول إليه؟ لمحة من جنون الهوس كنت أراها في تصرفاته، وكانت تكبر يوما بعد يوم.
بالرغم من ذلك؛ فشغفي به كان يزداد كل يوم أيضًا!
هل تعرفين ما هو الحب يا أمي؟
هو أن نسير في طريق منحدر، يؤدي إلى خسارة قادمة محققة، ومع ذلك نواصل بإصرار غريب!
تلاشي وجوده المادي من حياتي، وصرنا لا نتقابل.
حتى الرسائل التي كنا نتبادلها قلّت تدريجيا حتى انتهت تماما، ومع هذا ظلّ لغز زواجه بالنسبة لي غير مفهوم!
لا أعرف كيف يمكن لشخص ما أن يتسرب إلى روحك، يعبث بتوازنك النفسي والعقلي، يقودك ببطء عبر

ردهات التفكير المؤلمة، ونوبات الصداع المتكررة، والكوابيس التى تزورك على الرغم من أنفك!
وذات يوم وجدتك أمي تدخلين لحجرتي بوجه مكفهرَ، وأنت تقولين:
"حاتم!"
قفزتُ برعب:
"ماله؟"
"سقط في غيبوبة غريبة، ولم يستيقظ منها بعد."
كلما أتذكر تلك اللحظة أنفجر في البكاء. وجدوه ملقى بسكون على أرض حجرته الخاصة بسطح المنزل. كما ترين فإن السقوط في غيبوبة يشبه الموت، لكن عندما رأيته عِرفت أنه قد استيقظ، والمؤلم أنه لم يتعرف علي. هل يمكن أن يكون قد نسيني؟
هل يمكن؟
***

18 ديسمبر 2015

عزيزتي سهام...
لم أعد مطمئناً على صديقي في تلك المستشفى؛ لِذا فقط طلبتُ نقله لمنزل العائلة. الحقيقة أنى تركت

المنزل لفترة ليست بالقصيرة، وها هو ذا الابن الضال يعود. أبي متجهم كالعادة، أمى ترحب بى بحرارة أفتقدها، وشقيقتى مها العناية بي وبصديقي رأفت.

"ما أخبارك مع سهام؟"

قالت مها ، وهي تغمز بعينها اليمنى. قلتُ في محاولة منى لتضليلها، ومحو السؤال من عقلها:

"لماذا تفعلين هذه الحركة؟"

قالت بحيرة:

"أي حركة؟"

غمزتُ بعيني اليمنى؛ فقالت بغيظ:

"أفعلها منذ طفولتي، وتأتي الآن تستفسر عن سبب وجودها!"

ضحكتُ مرة أخرى. أختى العزيزة: لكم اشتقتُ إليك! كانت تقوم بالتأكد من توصيل المحاليل بجسد رأفت، في غرفة أعدت له خصيصا. بينما كنتُ منهمكًا في العبث بهاتفي المحمول، ومع ذلك أمكننى أن ألمح بطرف بعيني نظراتها الثاقبة؛ فقلت بضيق:

"قولي ما تريدين قوله يا مها."

قالت بخبث:

"ولماذا تفترض أننى أريد قول شيء ما؟"

"لأنني أعرفك."

قالت بعد لحظة، وهي تجلس أمامي:

"مما تهرب هذه المرة؟"

"ولماذا تفترضين أني هارب من شيء ما؟"

قالت ببساطة:

"لأنه ديدنك دوما. في كل الأحوال أنت تهرب من شيء ما."

وصمتت لحظة، ثم أكملت، وهي تنظر إلى وجهي بتركيز مزعج:

"أو شخص ما."

" من تعنين؟"

قالت بهدوء:

"سهام."

قلت بضيق:

"سهام انتهت بالنسبة لي. لقد وجدت نصفها الآخر في ذلك الشاب الذي يدعى طارق. إنهما يعملان معا، وسعيدان جدا."

الحقيقة أننى كنت أراقب تقدمكما سوياً بغيرة هائلة، وحتى عندما تركتما الطابق الذي أعمل به للطابق الأخير؛ فلم أتحرك من مكاني. وجودي بالقرب منكِ أنتِ وطارق، وأبي شيء لا يحتمل. وكأنما قرأ أبي أفكاري؛ فقد قال:

"وطبعًا أنت تراقب من بعيد كعادتك، دون أن تغمر قدميك في الماء."
أخبرتك أن قصتها انتهت."
قالت بشفقة:
"لم تبدأ أصلًا يا مسكين حتى تنتهي."
لم أنطق بكلمة. صدري يضيق بما تقوله، لكنها على حق.
"هل وجدت علاجًا للندوب التى تنتشر بطول روحك؟"
دمدمت وأنا أنهض:
"الزمن كفيل بعلاج كل شيء."
قالت من خلف ظهري، ودون أن أنظر إليها:
"أنت تهرب كعادتك."
كدتُ أتوقف، وأنا أجهز ردًا لاذعا، لكن بعد لحظة وجدتنى أكمل خطواتي للممر بالخارج، لأجد أبي يقف هناك؛ بقامته المهيبة، وذلك السيجار الفاخر الذي لا يترك شفتيه. كنت أخبره مرارا أنه سيموت بسبب تلك العادة الذميمة، لكنه كان-وفي هذا أنا أشبهه-يسير نحو مصيره بشكل غريب.
"أريدك في مكتبي."
"خيرا!"

لم أتوقع منه ردًا على كل حال؛ فقد اتجه صوب مكتبه، وأنا خلفه.
"اجلسٍ."
بلهجة صارمة قالها؛ فأطعتُ دون مناقشة، وأنا أفكر في شيء ما.
"هل أنت سعيد في حياتك الجديدة؟"
قلت بلا مبالاة:
"أعتقد."
"لكن هلٍ أنت سعيد؟"
رفعت بصري إليه:
"ماذا تريد يا أبى؟"
نفث دخان سيجاره في وجهي، وهي حركة تستفزني بشدة.
"أنت ابن عاقٌ لا تعرف مصلحة نفسك."
"أنا سعيد حيث أعمل."
"هل أنت مجنون؟ تعمل كموظف في شركتى، دون أن تطلب المزيد."
"أنا راض حيث أنا."
"حتى تكون بالقرَب منها. أليسٍ كذلك؟"
لم أنطق بحرف. إنه على حق أيضًا. حتى أكون بالقرب منكِ. قال بضيق، وقد ضاق بصمتى:

"أنت ابني الوحيد، ولا أعرف من أين أتيت بعناد الِبغال الذي تملكه؟"

ضحكتُ، وكدتُ أنسحب من لساني وأقول: منه، لكن بقية مِن حياء جعلتني أبتسم فقط. لابد أنه أدرك ذلك أيضًا؛ فقد زارت شفتيه ابتسامة شاحبة، سرعان ما انسحبت تحت وطأة الدخان الكثيف.

"سأسافر الصين بعد يومين، ومن حسن الحظ أنك هنا."

قلت بقنوط، وقد فهمتُ مقصده:

"ألا يوجد من يحل محلك في الشركة؟"

"كثيرون. لكن لن يوجد من أئتمنه أكثر من ابني."

قالها، كاشفًا عن صف من الأسنان البيضاء تتنافى مع شراهته في التدخين.

"حسب معلومتي أن طارق أبو العزايم مناسب جدًا لهذه الثقة."

"إنه موظف مجتهد فعلًا. لكنى أحتاج لشخص من صلبي يمكن أن أكل إليه الأمر، حتى مجرد صورة خارجية توحي بالسيطرة."

"آه!"

قلتها بمرارة. اكشف عن وجهك الحقيقي يا أبي. إنها ليست أزمة ثقة، بل أزمة مظهر خارجي براق.

كدتُ أرفض كعادتي، لكن برز لي خاطر فجأة في ذهني.

"موافق، لكن بشرط."

اعتدل في وقفته، وكأنه فوجيء بذلك. لقد فوجي فعلًا، وهو يرمقني بحذر.

"أي شرط هذا؟"

"ثمة امرأة أريد معرفة معلومات عنها."

ا لحذر يتزايد في انعقادة حاجبيه، ومع كثافتهما خلتُ أنه سيقوم بخنقي دون تردد.

"هذا هو عنوانها."

كنت أقرن كلامي بكتابة عنوان سيدة النور في ورقة صغيرة، وأعطيها له.

"اجعل مساعديك يأتوني بأكبر قدر ممكن من المعلومات عنها، ومقابل هذا سأكون واجهتك المحترمة خلال غيابك."

نظر إلى العنوان للحظة، ثم قال:

"أنت تُساومني!"

هززتُ كتفي:

"سأنتقل من الطابق الثالث للطابق التاسع. ألا أستحق هذه الخدمة الصغيرة؟"

"وما أهمية هذه المرأة بالنسبة إليك؟"



هززتُ رأسي، واكتفيت بابتسامة غامضة أعرف أنها ستستفزه. الحقيقة أنني لا أعرف دور تلك المرأة في حياتي بالضبط، أو ماذا تريد.

"**فليكن.**"

ودار حول مكتبه، ثم كمن تذكر:

"**أرجو أن تتعقل يا بني، وتعرف أين مصلحتك.**"

وغمز بعينه اليمنى:

"**ومصلحتك معي، بجواري.**"

الآن تعرفين من أين أتت مها بحركتها الذميمة هذه!

***

1 نوفمبر 1934

أمي الحبيبة...

ثمة رغبة حارقة الآ ن لدي بأن أبكي. الحق أنني فعلتها كثيرا في الأيام السابقة. البكاء يريح القلب، ويجلو العين، لكن تبقى تلك الندوب التى تظلّ غائرة في عمق الروح، لا تستطيع الهروب من مقصلةِ الزمن العاتية!

تزايد مرض أبي. ضعفه يبدو واضحا أكثر يوما بعد يوم، لكن في يومه الأخير على هذه الأرض بدا مختلفاً.

متألق العينين، يمزح معي كعادته، قبل أن تأتي سهير وتقوم بقلبه ضدي. كان أقرب ما يكون للأب الحنون الذي أحببته، وصار الحضن البديل بعد رحيلك.
أصر أن نفطر سويا برغم أني كنت مصابة بصداع فتّاك. الحق أن ذلك اليوم تحديدا هو اليوم الذي فقدتك فيه منذ فترة ليست بالقصيرة!

"يَبدو أنني سأقابل أمك أخيرا."

قالها أبي، وهو يتناول طعامه بتلذذ. نظرتُ إلى وجهه بذعر، وقلبي يخفق، بينما سهير تنظر إليه شذرا دون أتعلّق بكلمة. كان سعيدا، وهو يتحدث عن الدنيا والآخرة، الحياة والموت، النور والظلمة. لقد ورثت حب القراءة والكتب عنك، لكني أنسى أحيانًا أن ما جمعكما في البداية هو حبَ القراءة. تقابلتما في مكتبة الكلية. يقال بأن الكتب تنادي أصحابها، تهمس إليهم بصوت سحري لا يسمع؛ فقد تلامست أصابعكما بدون قصد-لو جاز التعبير، وسلّمنا بوجود الصدفة-ومن ثم فقد راح كيوبيد يغزل شباكه ببطء.
بعد قليل وجدتما نفسيكما تجلسان إلى طاولة في الركن، تتسم بالهدوء، ورحتما تتجادلان حول أحد الكتب، ومنه إلى موضوعات أخرى، لا تذكرانِ ما هي

تحديدًا، لكنكما تذكران جيدًا دعاباتكما المضحكة وإحساسكما الجارف بالسعادة!

قبل موته بثلاث ساعات تقريبا سألت والدي، وهو يأخذ دواءه عن السبب الذي يجعله يتذكر هذه الأشياء الآن، دون أن يكترث لوجود سهير. قال بحزن، وهو ينظر لوجهي، وكأنه يلقى نظرات الوداع الأخيرة:

"لحظة الحقيقة يا بنيتي بالإضافة أنني كنتُ على خطأ."

"بشأن؟"

"بشأن الزواج منها."

ثم اقترب مني، وقال وهو يهمس في أذني:

"كوني على حذر، ولا..."

صمت لحظات، يستنشق فيها هواء عميقًا، ثم قال كلمة واحدة فقط، اتسعت لها عيناي، على الرغم من أني كنتُ أعرفها ضمنا!

لم تدهشني يا أبي. لم تدهشني البتة!

***

قبل المغرب بقليل في ذلك اليوم رحل والدي.

وقفتُ بصمت أمام جثته الباردة، وعينيه المغلقتين بسلام، وملامح وجهه المسترخية، وكأنه نائم، دون أن أبكي أو أصرخ أو أفعل أي شيء يدّل على صدمتى.
كان هناك ضِجيج، وأناس يدخلون ويخرجون، وسهير تحيط كتفي بذراعها، وأنا أحاول أن أغالب اشمئزازي والانفلات منها صارخةً بحقيقتها، لكن وصية أبي واجبة التنفيذ. كان محمد يبكي بحرقة، في ركن الصالة، وأنا أرمقه بأسى. واجبي-كشقيقته الكبرى-أن أُخفِّفْ عنه، لكنى في حال يرثى لها، وأحتاج لمن يعتنى بي بدوري، وزوج أبي ليست مناسبة لهذه المهمة للأسف!
فقط أنتظر قدوم الليل، وهو لا يأتي بسهولة. كنتٍ أعرف أني سأنهار فيما بعد، وسأسكب الدمع مدرارا، لكن ليسِ الآن؛ فالأمر يستأهل منى أن أركّز.
أخيرا انتهي كل شيء، لكن هل انتهي؟
خلا البيت من جسد أبي، لكن ظلّ سمته وحضوره ماثلًا في كل ركن فيه. صحيح أننا لم نمكث إلا أشهر قليلة معا تحت سقف منزلنا الجديد، لكن كل ركن فيه يحمل قطعة من روحه، ومن قبل-عندما كنا في منزلنا القديم-كنت تنشرين ضياءك فيه أيضا، وكأن أبي بعد رحيلك لم يقدر على تحمل فيَض الذكريات الذى تنبض به المقاعد والجدران والأغطية والأسقف، ورائحة

الياسمين التى كنتِ تعشقينها، وتخضبين بها يديك ووجهكِ؛ لدرجةَ أنه كان يبكي فور أن يشم تلكَ الرائحة!

لذا لم يجد من حل سوى أن يترك المنزل لمنزلنا هذا. الآن، أشعر بأن أبي يقبع هنا؛ فهل أبحث عن منزل آخر أنا أيضاً، لكن مع من؟

لقد صرتُ وحيدة، مع شقيق متأفف، لا يوجد بينى وبينه تفاهم من أي نوع، مع امرأة أبغضها من كل قلبي.

هكذا، يمكنك أن تتخيليني وأنا أغادر حجرتي في عتمة الليل، وثمة ضوء شاحب ينتشر في الصالة على استحياء، وهو يغالب الموت بقوة؛ فيبدو أن ثمة عطلًا في الكهرباء! إنها تتذبذب بشكل مريع، لكنى تجاهلتها تماماً، محاولة ألا أنظر لظلِّي الذي يصحبني بإصرار عجيب، وخطر لي أنه لو تركني فجأة ورحل؛ فسوف أموت من الرعب!

كنتُ أريد الذهاب لحجرتى. فكرتُ أن ألقِى نظرة على سهير؛ فمنذ وفاة أبي، وهي تجلس كثيرا في حجرة مكتبه. اقتربتُ من الباب، ونظرتُ من الثقب. في البداية لم أر شيئا، لكن بعدها بدأت أتبين محتويات الحجرة التي أعرفها جيدا. خُيل إلى أنني أسمع همهمة،

كأنها تلاوة لشيء ما، وكان هناك بعض الدخان. لن أندهش لو كانت عضوة في جمعية لأكل لحوم البشر؛ فهو تليق بها بشدة! كانت تهمهم، وكأنها تُسلّي نفسها، وكانت تبحث بين أوراق أبي عن شيء ما بلهفة.

وهنا شعرتُ بوجود شيء ما، أو شخص ما. تسارعت دقات قلبى بسرعة مهولة!

وضعتُ يدي على قلبي، وأنا أتراجع للخلف بحذر، وهنا ارتطمت قدمي بحصاة أصدرت صوتًا ضئيلًا للغاية، بالكاد سمعته، وهنا أمكننى أن أسمع زمجرة خافتة بلغت لمسامعي، وجعلت حلقي يجف من الخوف. انطلق الخوف من مكمنه، ورحتُ أركض مسرعة نحو حجرتي. طبعا كان هذا خطأ؛ فمن المفروض أن أتجه للخارج، لكنى أعلم أيضا أن بيتنا في العراء وتحيط به مساحات خضراء ممتدة على مرمى البصر، ومن ثم فلن يكون اقتناصي صعبا!

وثبت إلى حجرتي، وأغلقت الباب خلفي، ثم رحتُ أجذب المنضدة الثقيلة المجاورة لفراشي، وقد أنّ ظهري، وكادت فقراته أن تتحطم، وأنا أدفعها نحو الباب بقوة، ثم جلست وأنا ألهث! الحقيقة أننى فعلتُ هذا بشكل تلقائي، ودون أن أفكر.

مما كنتُ أهربِ بالضبط؟ من سهير، أم من تلك الزمجرة التي تموج بها الهواء، وأصابتني بالرعب؟ لقد كان أبي على حق؛ إنها شخص لا يمكن الثقة به! كنتُ أعرف إنها كذلك، وإلا فكيف أثرت على أبي، وكيف استطاع أن يتحملها طوال كل تلك الشهور؟ لابد أنها تلاعبت به بذكاءها، وأنوثتها. كانت نصيحة أبى الأخيرة ألا أثق بها!

أتساءل: كيف يمكن القضاء عليها؟

ثم هززتُ رأسي، وأنا أطرد هذه الفكرة من ذهنى. يا لى من شريرة! تلك المرأة لديها قدرة غريبة على إيقاظ أبشع المشاعر بداخلي!

كما ترين يا أمي؛ فإن العالم ليس نمطيا أو تقليدياً جافاً. هناك ثقوب يمكن أن تمر منها عشرات الأشياء. هل لأنني محظوظة، أم لأن الكتب تُزيل ذلك الحاجز الرقيق بين عالمي الواقع والمتخيل، أم أنها لعنة حقيقية سأكتشف آثارها المدمرة فيما بعد؟

ربما كانت الاحتمال الأخير هو الأقرب للحقيقة وأنا جالسة ألتقط أنفاسي بصعوبة، لكن لأكن صادقة أكثر: كنتُ أشعر بالإثارة؛ فمعنى الضوء الأزرق الذي رأيته، والزمجرة التي سمعتها، والخوف الغامض الذي أشعر



به كلما رأيتُ وجه سهيرأن كل شيء ممكن، وأن هناك أشياء تتحرك في العتمة!
والمفروض أن أعرف أنه توجد أشياء كهذه؛ فقد قابلت إحداها من قبل.
طبعًا أصدّق بوجود السحر، لكن ما هو، ما حدوده؟ لا أعرف.
أسمع اللهاث القادم من خلف الباب. أنفاس ثقيلة بطيئة، لشخص يتحرك بثقة من سيصل لهدفه أخيرا. كنتُ لا أصدق ما يحدث. أتخيل أني في أحداث رواية مشوقة، وأنا ما يحدث ليس له جذور في الواقع. تتشاجر الأفكار والاحتمالات في ذهني، وهنا خطر لي أن أفضل ما أفعله هو النوم!
ثمة قصة حدثت لي وأنا صغيرة. الحقيقة أننى لا أتذكر منها أي شيء، لكنك رويتها لي ذات مرة، وأنتِ تضفرينَ شعري.
عندما كنتُ صغيرة، حكيتُ لك عن ذلك الظلّ الذي كان يمر أمام باب حجرتي الواسعة. كانت هذه أولى سنوات قراءاتي. قلت لي أنني واسعة الخيال، أتشبع بالتفاصيل، وأتشبث بها، وأصدق وجودها. فغرت فاهي ببلاهة، ولم أفهم حرفًا مما قلتِ. هنا ابتسمتِ:

"عندما ترين الظلّ في المرة القادمة تظاهري بأنك لم تريه. فقط ضعي الغطاء على جسدك، وأغمضيَ عينيكِ، وتخيلي أنه ينظر إليك مرة واحدة فقط، ثم يواصل سيرَه"

نفذت نصيحتك، ومن لحظتها لم أر الظلّ مرة أخرى.
كانِت خدعة ناجعة وقتئذ، لكن الآن: هل ستصلح؟
أثب إلى الفراش، أسحب الغِطاء على جسدي، وما زال اللهاث الغاضب يصل إلي. ثم بدأ السكون ينشر أجنحته المرفرفة على المكان. دون أن أنتبه وجدت نفسي أبكي. ليس خوفًا من الموقف الذي أنا فيه-مع التأكيد أنني خائفة بالفعل- ولكن لأنني أدركتُ أنني سأواجه الكثير بدون أبي. أنتِ لا تعرفين قيمة من يكونوا معكٍ حتى يرحلوا؛ واحدًا بعد الآخر، ينزعوا من روحك قطعا في رحلتهم للأبدية، يتركوا سمتهم المبهج والكئيب في فراغات القلب والعقل، تنتعش حينا بأمطار الذكريات، وقد تتبخر بذكرى شمسية متوهجة، وقد تتولد سحابة داكنة تجذب إليها كل المشاعر السلبية ثم تقوم بالإمطار عليك!
هل فقدته فعلا؟
نعم؛ إن البكاء يريح القلب، ويجلو البصر.

***

ما أن أشرقت الشمس، وتسللت أشعتها الذهبية؛ لتذيب ذكريات البارحة، حتى بدا كل ما رأيته ذكريات سخيفة لا تليق بمخيلة الأطفال؛ فما بالكِ بفتاة ناضجة مثلي؟

أغادر حجرتي بحذر. أعبر الممر، وأنا أواجه يومي الأول على هذا الكوكب بدون وجود أبي. يأتيني صوتها البارد من أسفلٍ:

"هل نمت جيدا؟"

أنظر؛ فأجدها تجلس بهَدوء، وهي تتأمل بعض الصورِ التيِ تجمعها مع أبي، على سبيل الوفاء. بدا لي تصرفًا منفرًا منها، ولولا أنني لا أعرف مع من أتعامل بالضبط؛ لقمتُ بتهشيم رأسها! الآن تبدأ مشاعر الكراهية تتشكل في مخلوق آخر بداخلي، لو أطلق له السراح؛ لقامت معركة شرسة هنا!

في ضوء الشمس نكتسب شجاعةٍ فائقة، ومع وجود غيرنا نشعر بالأمان. البستاني، وطباخ المنزل، ومدبرته. وعم سيد. لا أعتقدِ أنها من الغباء بحيث تكشف عن سرها بهذه الرعونة!

هبطتُ درجات السلم، وأنا أحاول السيطرة على خفقات قلبي دون فائدة.



أجلس مقابلها، أتأمل جلد وجهها النضر، وعينيها البراقتين، وتلك اللمعة الغريبة التى هي مزيج من المكر والسخرية والغموض!

"لم تجيبى على سؤالي: هل نمتِ جيدًا؟"

"ملء جفني."

قالتها على سبيل التحدي. هزّتْ رأسها بوقار:

"عظيم؛ فما أريد قوله يحتاج لذهن صاف"

"في أي شيء تريدين الحديث معي؟"

لم تنطق بكلمة في البداية. راحت تغمرني بنظرات متساءلة، حتى أنني شككتُ أننى أتوهم! أيمكن أن يكون ما رأيته جزءا من سلسلة التوهمات التي أراها في هذا البيت؟ بغض النظر عن كونها حقيقية أم لا؛ فإني أراها. أحيانًا يكون أصحاب الخيال المتوقد هم أكثر الأصناف ضعفًا وهشاشة، ونوافذ ممتازة لتسرب الكثير من الأشياء!

ثم قالت أخيرا:

"بماذا همس أبوكِ في أذنك؟"

ضحكتْ:

"أهذا ما يهمك؟"

"أيًا كان ما أخبرك فهو كاذب!"

"أبي ليس كذابا."

"هذا إذا كان هو أبوك فعلًا."
صرخت فيها:
"أي كذبة جديدة تحيكينها."
قالت بهدوء:
"من بين كل كذباتي الرائعات فهذه حقيقة ساطعة."
وأشارت لصورة أبي المعلقة على الجدار، وقالت:
"هذا الرجل ليس أبيك."
لم أكن أصدقها طبعا؛ فلست ابنة الأمس.
واصلت:
"لقد قلبتُ كل ورق العائلة، ولم أجد ورقة واحدة تدلل على أنه أبوك، وهو ما يطرح تساؤلا حتميا."
وحدقت إلى وجهي:
"من أنت؟"
***

20 ديسمبر 2015

عزيزتي سهام...
عندما وطأتُ الشركة بقدمي كنت أشعر برهبة، وأنا أداعب ربطة العنق السخيفة حول رقبتي، محاولًا الظهور بشكل احترافي يليق برجل مثلي، سيدير شركة لا

يرغب في إدارتها أصلًا. صحيح أننى أدخل الشركة يومياَ، لكن كموظف.

"أنرت الشركة يا أستاذ حسام."

قالها طارق أبو العزايم وهو يرحب بي بلهجة باردة، في مكتبى الفاخر. بمعني أدق: مكتب والدي.

"ما هو المطلوب منى بالضبط؟"

سألته، وأنا أجلس خلف مكتبي.

ابتسم:

"لا يوجد مدير تنفيذي يسأل هذا السؤال!"

ابتسمتُ على الرغم منى. ربما في ظروف أخرى كان من الممكن أن نصير صديقين حميمين.

"ما أخبارك مع سهام؟"

سؤال خارج المتوقع كما يبدو؛ فللحظة تجمدت ابتسامته، وكادت شفتاه تتشققان، لكنه تمالك نفسه سريعا، وهو يهمهم بكلمات مدغمة، محدقًا إلى الأرض. هل كان يعلم أننى أحبك؟ هل يعلم أن قلبي يدمي، يئن بصمت، ينبض بحروف اسمِك، وطيفك مختبيء في الظلال، يشع من وجهي، معلناَ عن وجودَك الراسخ؟ تركني في المكتب، ريثما أمارس مهام عملي، التي لا أعرف أيا منها على الإطلاق. شعرت بحاجةٍ للهواء النقي، وبما أني قريب من القمة؛ فقد صعدتُ للسطح.

كنتُ أذهب لهناك كلما شعرتُ باختناق من والدي، الذي كان يحرص على ذهابي معه أيام الجامعة، حتى أتشرب العمل، وأعرف كيف أدير الأمور. كان يضع كل جهده وأمله على حصانٍ خاسر مثلي. هل هناك مجنون يختبيء في الظل بعيداً، بالقرب من الأرض، من أجل فتاة لا تشعر به أصلاً؟

لكن كان هناك سبب آخر لذهابي لهناك. التشبث بذكرى قديمة، حيث كان لقائي الأول بك فوق السطح.

أيتها البهية الشهية الساحرَة!

ويا للمفاجأة؛ فقد كنت هناك!

تقفين، محدقة إلى الأفق، وثمة سَحب داكنة تسير ببطء في صفحة المساء، تحتشد برونق وجلال.

كنت مضيئة كالشمس!

برغم أن خطواتي كانت غير محسوسة-بسبب حذائي الكاوتشوك-إلا أنك إستدِرت فجأة للخلف؛ لتجديني أحدق إليك.

"حسام!"

قلتها بدهشة، وأنا أقترب منك متهيباً. أنت تعرفين أن الحَب غير مفهوم، هذه الروحَ التي تضطرَم بداخلنا، كجذوة من اللهب لا تكف عن الحركة!

"لم أكن أعرف أنكِ هنا!"

قلت:
"ما الذي أتى بِك؟"
قلت مبتسما:
"الشركة أم السطح؟"
"الشركة"
هززتُ رأسي في قنوط:
"أبي سافر، وأنابني مكانه."
قلت بحذر بدا لي غريبا:
"ليس من عادته أن يفعل. هل عاد الابن الضال لحضن أبيه أخيرا؟"
ضحكتُ، وكانت ضحكة مبتسرة خاوية على عروشها، لا تعنى شيئا، أو تعنى كل شيء:
"هل ترينني ضالًا؟"
دمدمت بلهجة متحدية، تشوبها مسحة من السخرية، أو هكذا خُيلَّ إلي:
"أو لستَ كذلك؟"
"ربما."
"كلنا ضالون بشكل أو بآخر."
"مالك؟"
قلت بشرود، وأنت تعَودين للنظر للأفق:
"آتي هنا كلما أردتُ أن أنفرد بنفسي."

قلتُ وأنا أقترب منك:

"هل تريدين منى الذهاب؟"

"أنا خائفة."

"من أي شيء؟"

"من المجهول. من الغد. من قلبى الذي يخونني. لكن أكثر ما يخونني هو ذلك الشيء اللعين الذي يكاد يصيبني بالجنون."

"أي شيء؟"

هنا قلت شيئاً لم أتوقعه:

"هناك مشاكل بيني وبين طارق!"

***

جلسنا في مكتب والدي، أمسح وجهك الذي اشتٍقت إليه، وقد كنت تفركين يديك بتوتر أتفهمه جيداً.

"ماذا تعنيَن أن هناكٍ مشاكل بينك وبينه؟"

الحق أننى كنت مسرورا. أن أرى بعيَني كل شيء يتهدم بينكما. مع ذلك كان لابد أن أرسم شعورا بالتعاطف والأسي يظهر بوضوح على صفحة وجهي.

"إنه شعور لا يمكن وصفه. هذا الإحساس غير المنطق."

"لم أفهم!"

ابتسمت بارتباك:

"وهذا ما يكاد يصيبني بالجنون! أنا نفسي لا أفهم!"

"مزيد من التوضيح من فضلك."

كدت تنفجرين في البكاء:

"أحيانًا أشعر أنّ هناك أخرى. ثمة شغف آخر في حياته غيري."

هكذا هو الأمر إذن. إجابة غير متوقعة، أوغرتْ صدري، وأشعلت النار فيه، لكن لا بأس بها من بداية. التشققات تبدأ من أمور كهذه.

دقات على الباب قطعتْ كلامنا. دخل رجل أعرف وجهه، ولا أعلم اسمه.

"أستاذ حِسام."

"خيرا."

"لقد كلفني الوالدُ بمهمةٍ ما، وها هي نتائجها."

ناولنى ورقة، جريتُ بعيني بسرعة على محتوياتها.

قلتُ منفعلًا:

"هل أنت متأكد؟"

هزّ رأسه، وقد بدا من النوع غير المحب للثرثرة. لقد كان سريعا والحق يقال، وهو ما ينبيء عن علاقات أبي وسطوته.

انصرف الرجل، وأنا أفكر في الخطوة التالية.

"هل صرتَ غامضًا الآن؟"

سألتني وأنت تحاولين رسم ابتسامة على وجهك المحمرَ من الانفعال؛ فقلت شاردًا:

"إنها قصة غريبة انزلقتُ فيها، وتسببت في تهديد حياة رأفت."

قلت بذعر:

"رأفتَ صديقك؟"

قلتُ بضيق، وقد انتبهتُ أنى أثرثر. تلك الثرثرة التي كادت تودي بحياته من قبل:

"إنه أحمق! لقد ورطنا مع امرأة مجنونة."

أشرت للورقة:

"وهل هذا عنوانها؟"

أومأتُ برأسي. إنك ما زلت حادة الذكاء كعهدى بها.

"وماذا ستفعل؟"

"سأعرف حكايتها طبعًا."

عيناكِ الخرساوان تقولان شيئًا ما. قلت بضيق:

"ماذا؟"

ابتسمت:

"شيء ما فيك قد تغيّر."

"وما هو أيتها الألمعية؟"

"لستُ متأكدة."

سرّني قولها. أخيراً لفتُّ انتباهها من غير قصد مني.
هل يكون ما يحدث لي، هي سلسلة من الأحَداث
المتوالية التي ستؤدي لنفس النتيجة؟
قلتِ فيما يشبه الرجاء:
"خذني معكَ."
قلتُ مندهشًا:
"إلى أين؟"
تمالكت نفسكِ، وكأنك تخفين شيئًا ما بداخلك:
"إلى العَنوان طبعا. رأفت أحترمه، وأعتبره صديقي بشكل أو بآخر."
تأملتك للحظات. ما الذي تخفينه عنى يا فتاة؟
غادرنا المبَنى الضخم، الموجود بأرقى أحياء العاصمة.
كنتُ أشعر بالاستثارة، وكأن حياتي المضطربة بدأت في الانتظام، والتماسك كما كنت أتمنى. عندما وصلنا العنوان المكتوب في الورقة، شعرت برعدة تسري في أوصالي. تخيلي أننى كنتُ أقف أمام نسخة طبق الأصل من فيلا المعادي. الحديقة، الباب الأخضر المرسوم عليه تلك الزخارف، لكن العجوز لم يكن موجودا بالخارج.
"ماذا نفعل؟"
سألتني، وأنتِ تنظرين حولك بتوتر. في ظروف عادية كنتُ سأولى الأدبار. لكن رغبة خفية بدأت تنمو بشكل

كبير في أن أبهرك. أن أثبتْ لكِ بأنني لم أعد ذات الشخصَ الذي كنتَ من قبل.

"سنتسلل من النافذة."

قلتها، وأنا أدفع نافذة ذات مستوي منخفض، وأدخل، بينما أنت تتبعينني، وأنت تقولين مداعبة:

"أينِ حسامَ؟ لابد أنكِ تنتحلَ شخصيته!"

ابتسمتُ على الرغم منى. كان ضوء النهار يتسلل بدوره من النوافذ الزجاجية الضخمة بشموخ؛ فينعكس على السيراميك الأزرق الشفاف، لتغرق الفيلا في ضياء مبهر، جعل أنفاسك تتعالى من الانفعال. من الطريف ان أراك تنبهرين، لكن ليس بسببى للأسف!

كانت هنَاك حجرة مفتوحة في ركن الصالة القصي. اقتربنا منها في حذر. أطللتُ برأسى للداخل، ثم تبعته بجسدي وأنت خلفى، ووقفنا لبرهة.

في نفس اللحظة، وَثبٍ أحدهم نحونا، وهو يمسك سكينا عملاقة!

***

3 نوفمبر 1934

أمي الحبيبة...

في ذلك الصباح البارد رأيتُ أحدهم قادمًا. ظلٌّ ينسحب على الجدار. خلتها سهير. لم أعد مندهشة، ولن أستغرب لو كسرتُ عنقها ذات يوم. أتذكر حديثًا لي من قبل مع هِند، وأنا أخبرها عن تخوفي من ظلمة ما قادمة. حسنا، لم أكن محددة جدًا. فتلك الظلمة قادمة بداخلي. أعتقد أنها ستكون بسبب سهير، والتي تدعِي أنك لستِ أمي، وأبي ليس أبي!

أفكر كثيرا في حاتم. لا أعرف عنه أي شيء، ولا أجسر على تتبع أخباره، أو حتى محاولة مقابلته. لكن ما زال شيء ما يتوهج بداخلي. شيء ما ينتمي إليه. لكم يدهشني الحب بمقدماته، لكنه يدهشني أكثر بنهاياته. لو عرفنا ما هو آتٍ؛ فهل نتقدم بجسارة، أم نتراجع بوجل؟

هل الحب يستحق أن نتذوق من أجله مرارة الأهوال وآلامها؟

لكن حدث ما غيّر كل شيء، ذات صباح بارد:

"مريييم!"

الصوت الطفولي الجهوري في ذات الوقت، ذو النبرةِ المرحة، أو التي تضج بالمرح على وجه الأدق. ووقفت أحدق إلى وجهها، وأنا أقول:

"هند!"

صديقتي العزيزة: جميلةٌ كقطرة الندى، صبوحة الوجه مثل شمس مشرقة، وحالمة مثل سحابة صيف بيضاء، وكانت لا تعلم بوفاة أبي. الحقيقة أنني لم أبلغها؛ إذ أنني أعلم أنها متعلقة به بشدة، وفكرة أن تعلم بوفاته وهي في منتصف معمعمة سفرياتها، ستكون قاسية. ستتوقف الحياة عند نقطة معينة لديها، وهذا أمر لا يسرني. يكفي أنا!

احتضنتها بشوق، لكن هذا لم يخف نبضات قلبي المتسارعة فيما يبدو؛ لأنها تراجعت للخلف، ولمعت عيناها بنظرة متوجسة، وهي تسألني:

"ما الأمر؟"

تدخلت سهير كغراب البين، وقالت بصوت يملؤه الأسى:

"أبو مريم."

نظرة ذعر في العينين اللتين لم تعودا حالمتين بالمرة!

***

أمام قبره المنبسط في تلك القطعة من الأرض، والتي يسرى فيها نسيم بارد، منعش للروح وقفنا! هند تبكي بحرقة، بينما تقف سهير هناك، تحت شجرة، تبدو لي- من حيث أقف-ككيان أسطورى فعلًا بطولها الفارع، ونظرتها الحزينة المصطنعة، والتي لم تستطع إخفاء تلك النظرة الخبيثة في عينيها.

"لماذا لم تخبريني؟"

همهمت بصوت منخفض.

"ما الأمر؟ تحدثي."

"ليس الآن يا هند. ليس الآن."

فهمت رسالتى؛ فصمتت ولم تلح. أعلم أنني سأتلقي منها سيلًا منهمرا من الأسئلة. للأسف لن تجد عندي إجابات. عندما جمعنا الليل سويا في حجرتي حكيت لها ما حدث. عيناها الواسعتان تضيقان بتوتر. نظرة مذعورة فيهما. أي واحدة أخرى سوف تتهمنى بالجنون، لكنها أكثر خيالًا مني. معا عشقنا القراءة، ومعا أصابتنا عصاها السحرية بلمستها غير القابلة للفناء!

كنا نجلس في الحديقة. نرقب الأشجار المنتصبة حولنا.

"بالإضافة لما حكيته لك؛ فهى ليست كما تظنين."

"مَن؟"

سألتني، وهي تقضم تفاحة بشرود:
"سهير."
"أعرف أنكِ تكرهينها."
هززت رأسي:
"ليس الأمر كذلك. لقد أخبرني والدي إنها شريرة، ويجب أن أحذر منها، وألا أثق بها."
" حقًا؟"
"كما أقول لكِ."
لم تتكلم فوراً. فقد راحت أصَابع يدها اليمنى تداعب اليسرى بصمت. تبحث عن رد مناسب؟ ربما!
"تحدثي معي يا هند. لا تصَمتي."
"ما تقولينه يفوق أغرب تخيلاتي يا مريم."
"لكنه حدث. هذا البيت فيه سر ما. لا أعرف ما هو، لكني أشعر به. أحيانًا أشعر بوجود شيء ما يراقبني."
تمتمت:
"حسب كلامكِ فالأمر لا يحتاج لتفسير. لابد أنها سهير."
"ولماذا ستراقبني؟"
"أنسيتِ أنكِ ستحوزين- مع شقيقكِ معظم ثروة أبيك."
"تظنين أن الأمرَ متعلق بالمال؟"

هزّت هند كتفيها:
"المال أو غيره. في كل الأحوال لابد أنه شيء قيّم ويستحق القتال من أجله. ثم لا تنسي أن طمعها قد أظهر عن نفسه بوضوح. ألم تخبرك بأنه ليس أباك؟ لن أندهش لو وصل الأمر للتزوير، مَن أجل أن تحقَق أهدافها."
قلتُ شاردة:
"وربما يصل الأمر للقتل."
سألتني:
"ماذا سنفعل؟"
وكأني لم أسمع سؤالها؛ فقلتُ وأنا أنتفض بعصبية:
"تلك السافلة تقول بأنه ليس أبي! تخيلي!"
أمسكت بيدي برفق:
"اهدئي. لا تفقدي أعصابك. هناك الكثير مما يحتاج لكل ذرة تفكير فيك. انتظري وسنري ما سيحدث."
قَلت بعصبية:
"هل سأجلس مكتوفة اليدين؟"
"لا."
"ماذا سنفعل إذن؟"
"وهل هذا يحتاج لسؤال؟ لابد أن نعرف ما تخبئه."

الحقيقة التي توصلتُ إليها-في تلك اللحظة-أننى لا أعرف أي شيء عن سهير. كل محاولات أبي لتعريفها كانت تذهب أدراج الرياح؛ بسبب صدودى، وتعبير الضجر المقترن بالاشمئزاز على وجهي. لكن ثمة ملاحظة قد تكون هامة، وقد لا تكون. كانت سهير -في موعد معين من كل صباح-تغادر المنزل إلى وجهة مجهولة، وهكذا قررنا-أنا وهند-أن نتتبعها!

***

22 ديسمبر 2015

عزيزتي سِهامِ...

من حسنٍ الحظ أننى كنتْ متوترا، كقِطِ ذي ظهرٍ مشدود. طبعا الصورة ليست صادقة تماما؛ فقد كنتُ أشعر بخوف عارم، وأنا أجذبك ناحيتى. كانت جذبة موفقة، وصَاحِبُ السكين يضَرب الفِراغ، ثم تنزِلق قدماه، ويقع أرضا. قبل أن ينهض كنتُ قد جثمتُ فوق صدره، وأنا أنزع السكين منه بصعوبة. كان هو العجوز ذاته، وعيناه تنبئان عٍن شراسة عجيبة، وهو يقاومنى؛ لكننى لم أكن مندهشا؛ فهو يتمتع بقوة هائلة شاهدت

بعضها في المستشفى. إذن هو أنت أيها الرجل ذو المعطف الطويل؟!

"أين سيدة النور؟"

قلتها، وأنا أسحبه للجدار، وألصقه به، وقد انتابتني حمي حماس غير عادية، وأنا أعلم أنك ترين كيف أتصرف. لن أكون مدعيا، وأخبرك بأن غموض سيدة النور كان يزعجني لدرجة تجعلني أتعامل مع ذلك العجوز هكذا، لكن أخبرتك أنها فرصة نادرة لكي أجذبك إلى حبي من جديد.

"أين هي؟"

"لا أعلم."

"هل تعلم أنك من هاجمت صديقي؟ لابد أنها ستسر كثيرا عندما تعلم ذلك."

"أنت أحمق! هل أخبرك أحد بذلك من قبل؟"

كدت أرد بأن مها قد فعلت، لكني جذبته أكثر إلي، وأنا أقول:

"أفصح. ماذا تقصد."

"هي من أمرتني بمهاجمة صديقك أيها العبقري!"

***

كما رأيت؛ فقد تجمّدتُ في وقفتي، وتجمدتْ ذرات الهواء الخفَيفة الراقصة في أشعةٍ الشمس القادمة من النوافذ، ومعهما توقف عقلي أيضًا عن التفكير. نظرة شامتة قد بانت بوضوح في عيني العجوز، وأنا أجلسه على مقعد ما. لاحظت هنا-وقد عاد عقلي للعملٍ، وإن كان بشكل بطيء-لزجاجة خالية بجوارِه، ورأيتِ أن يداه ترتعشان. قلتُ ببطء، وأنا أضيق عيني:

"هي من أمرتْ بذلك؟"

أومأ برأسه.

"لماذا؟"

"ألم تفهم بعد؟"

"لا ترد سؤالي بسؤال."

"لأن هذه هي صفقة صديقك معها."

تراجعتُ للخلف، قائلًا ورجفة تزحف على ظهري:

"رأفت!"

قال مؤكدًا:

"لقد عقد صفقة مع سيدة النور."

"أعلم هذا. لكن ما علاقة هذه الصفقة بأن تصدمه بسيارتك؟"

"حتى يدخِل المستشفى."

قلتُ وقد تضاعفتْ مساحة الظلام بعقلي:

"التي قمت أنت بمهاجمته فيها."
ابتسم بخبث:
"وحتى تقوم أنت بالاعتناء به في منزلك."
قلت بحذر:
"وما الغرض من حدوث هذا؟"
"أنت لا تعلم تفاصيل صفقة صديقك المقرّب مع سيدة النور؟"
"هو لم يخبرني بها."
"لقد كانت صفقته أن يجتمع بشقيقتك مها أكبر قدر ممكن من الزمن؛ لأنه يحبها."
قلت مذهولًا:
"الوغد!"
أتذكر وأنا أقول له بأن القلوب المحطمة لا علاج لها؛ فيخبرني بالعكس.
كان يتكلم عن نفسه!
"أين سيدة النور؟"
"لا أعلم. لقد اختفت تمامًا."
"أنت تكذب."
صرخ في وجهي:
"ألا ترى بعينيك الحالة التي أنا فيها؟"
يداه تزداد رعشتهما. تقولين لي بشفقة:

"رويدك يا حسام. الرجل يبدو صادقًا في قوله."
واصل كأنما لم يسمعني:
"لقد حاولتُ الوصول إليها دون جدوى، وكما ترى فإن جسدي ينهار."
"جسدك ينهار؟"
ثم تبينت لي الحقيقة فجأةً:
"أنت عقدت معها صفقة أيضًا!"
"كان هذا منذ سنوات طويلة. تلك الزجاجة كانت تعطيها لي كل شهر، فتوقف عمليات الشيخوخة والهدم بجسدي. لكن باختفاءِها بدأ جسدي يعلن عصيانه علي."
قلت بحيرة:
"ما سرَ تلك المرأة؟"
"نفس سؤالي يا سهام."
ثم التفتَّ للرجل، وقد وجدتها فرصة للحصول على معلومات كثيرة منه:
"أخبرني عنها. كيف قابلتها، وما علاقتك بها، وماذا تريد منى بالضبط؟"
قبل أن ينطق بحرف، وجدتك تنظرين فجأة إلى الخارج، وثمة توتر علىَ وجهكِ.
"ما الأمر؟"

قلت هامسة:
"هناك منَ يتحرك بالخارج."
أحدٌ بالخارج؟ هل توضع رجولتى كبطل شجاع في مهب الريح؟ ها هو ذا اختبار جديد، وإن كنت قد نجحت في إبراز شجاعتي المزعومة مع عجوز متهدم؛ فكيف مع آخر غامض يتحرك بالخارج؟ تقدمت من الباب بحذر، وكان هذه حماقة دفعت ثمنها فيما بعد. المهم أننا غادر نا الحجرة للصالة مجددا، وأنا أسائل نفسي إن كانت سيدة النور النصابة هي من أتت؟ لكن لا، ربما تكون نصابة في موضوع رأفت وخداعها إياي، لكن ماذا عن الطيف الذي رأيته؟ ومعرفتها الكافية عنه؟
فجأة هتفتِ، وقد أمكنك تمييز الوجه الغارق في الضوء قبلي:
"طارق؟"
كان هو. حبيبك. يؤلمني أن أقولها كان يُسدِّد إلينا نظرات ملتهبةَ بتقطيبة على جبينه، ناظرا حوله مستكشفًا المكان. سألته:
"ماذا تفعل هنا؟"
"بل أنتِ ما الذي تفعلينه هنا؟"
وأشار إلي:

"معه؟"

قلت بارتباك:

"كنا نحقق في شيء ما."

قال ساخراً:

"هل صرت الآن محققة؟"

قلتَ بضيق:

"إنه ذلك العجوز الذي..."

هتفت:

"العجوز!"

ووثبت للحجرة من جديد؛ لأجدها خالية. ضربتُ كفي بعضهما البعض، وقلت بغيظ:

"الخبيث! لقد أفلت!"

اقتربت من النافذة المفتوحة، ثم ألقيت نظرة غاضبة على طارق الذي ارتبك في وقفته. سرني هذا. الظروف تخدمني بشكل كبير. رحت أرسم تصورات في ذهني لطرق انفصالهما، ونحن نغادر الفيلا. كان من الممكن أن أقوم بتفتيشها، لكنني لم أكن أعرف عما أبحث بالضبط. ما زال عقلي يغرق في الظلام، ولا أعرف بالضبط ما الذي يمكن أن أفعله.

"سأذهب مع طارق الآن. ماذا ستفعل؟"

"وهل هذا سؤال؟ هناك من يستحق لكمة في عينه!"

***

كان رأفت يضحك. كان جالسًا على السرير، وهو يتناول الطعام من صينية وضعت على الغطاء، بينما تقوم أختي البارة مها بتقديمه إليه برفق. رسمت ابتسامة وادعة على شفتي بقدر ما أستطيع:

"هل أنت أفضل الآن يا رأفت؟"

ضحك بمرح:

"هل تمزح؟ هذه خدمة خمس نجوم. لابد أني محظوظ."

وافقته بهزة من رأسي:

"أنت كذلك يا صديقي العزيز. أنت كذلك."

ثم جلست بجواره، وقلت لمها برفق:

"دعينا بمفردنا يا مها. فلدي ما أقوله لرأفت."

كانت نبرات صوتي لينة، رقيقة، لكن وجهه تمعر؛ فيبدو أنه لم يتعود على هذا مني؛ فتوجس شرا. حسنا، لا ينقصه الإحساس بعد كل ذلك. غادرت مها الحجرة، وفور أن أغلقت الباب خلفها، وضعت قدمي فجأة على قدمه المكسورة؛ فقال وقد أفلتت من حلقه صرخة ألم:

"حاذِر أيها المعتوه!"
قلت بذات الرفق:
"هل تشعر بالِألم؟"
قال غاضبا:
"طبعًا أشعر بالألم. هل ترى أن هذا هو وقت المزاح؟"
"وهل ترى أن صداقتنا تحتمل خداعًا؟"
ارتبك للحظة:
"عما تتحدث بالضبط؟"
"عصفورة أخبرتني بأنك عقدت صفقة ما مع سيدة النور."
قال بعصبية:
"لستَ محتاجًا لعصفورة؛ فقد أخبرتك بهذا من قبل."
"ولم تخبرني عن فحوى صفقتكما."
ازداد اضطرابه:
"أخبرتك أنني..."
قاطعته منفجرا:
"مها يا رأفت؟ مها!"
قال باستسلام، وقد وجد من الحمق أن يتمادى:
"أنا أحبها."

"منذ متى؟"
"منذ شهور أو سنوات أو ربما منذ الأزل. هل هذا هو المهم؟"
"ولماذا لم تخبرنى؟"
"لأننى لا أريد لصداقتنا أن تهتز."
"تهتز؟"
قال بضيق:
"هذا ما تفتق عنه ذهنى. اليأس يجعل المرء يرتكب أكبر الحماقات طرا."
"ولماذا لم تخبرنى؟ كنت سأساعدك."
ضحك بمرارة:
"أنت؟ كفّ عن أحلامك يا صديقي. أنت تواجه مشاكل ثقة مع أبيك، وتعجز عن حل مشاكلك بنفسك."
آلمنى أنه يفكر في بهذهِ الطريقة، لكنى رددتها له بأن صرخت في وجهه:
"وهل الحل أن تلقي بمصيرك ومصيري بين يديّ امرأة مجنونة؟"
همهم ببعض كلمات غير مفهومة. هدأتُ قليلًا. على الأقل هي ساعدتني-بشكل ما-للتواصل من جديد معك.

لكن تظلّ المشكلة قائمة.
من هي سيدة النور؟

***

4 نوفمبر 1934

أمي الحبيبة...
كان الصباح باردًا. أنا أكره البرد، ويشعرني بوحدة طاغية، وخاصة بعد رحيلك أنت وأبي. التواصل مع أخي محمد شبه منعدم من البدَاية؛ فلك أن تتخيلي تفاقم الوضع. من المفترض أن نتقارب أكثر لا العكس. كنت أرتدي معطفي، عندما شعرت بوجوده. التفت؛ فوجدته واقفًا على الباب نصف المفتوح.
"إلى أين؟"
سألني على غير عادته.
"سنذهب أنا وهند في مشوار قريب."
كنتُ أكذب؛ فلم أكن أعرف أين ستقودنا خُطانا خلف سهير. قال متبرما:
"صديقتكِ هذه لا أستريح إليها."

قلتُ مبتسمة:
"منذ متى؟"
قال بخشونة لم أجد لها مبرراً:
"ليس هذا هو المهم."
قلتُ، وأنا أضع الوشاح حول عنقي:
"ما المهم إذن؟"
"ابتعدي عنها."
توقفتُ في مكاني أمام المرآة. أنظر إليه ببطء، ما زال في العاشرة من عمره، وها هو ذا يمارس دوره كرجل البيت. بشكل ما أسعدني هذا؛ فهو يخرج من قوقعة الحزن، ويشعرِ بالمسئولية نحوي. قمتُ برفق، وأنا أجثو على ركبتي؛ ربما لأبدو له من منظور سفلى:
"لا تقلق يا محمد. أنا أثق بهند، واعلم أن مشوارنا هذا في مصلحتك."
قال بتشكك:
"مصلحتى؟"
لم أنطلق بكلمة. فقط بابتسامة هادئة تخفى موران المشاعر بداخلى. قال فجأة:
"خذاني معكما إذن."
قلتُ بدهشة:
"تذهب معنا! ولم؟"

"أشعر بالملل."

لم أجد سوى جملة واحدة ردًا عليه:

"هذا مشوار بناتي لا مكان للصبية فيه."

بدت عليه الحيرة، وبدا أنه يقلّب الجملة في ذهنه، وهنا مرقت للخارج قبل أن يستوقفني من جديد بشيء ما غير متوقع!

***

خارج المنزل، وفي ركن منزو، بعيد عن الأنظار كانت هند تنتظرني.

"متى ستخرج؟"

سألتني؛ فأشرت لبوابة المنزل الخارجية:

"الآن."

كانت سهير ترتدي وشاحا أزرق اللون، ونظارة شمس، وكأنها لا تريد لفت الأنظار إليها. تبعناها، حتى أوقفت سيارة أجرى؛ ففعلنا مثلها.

"وراء هذه السيارة يا أسطى."

تمتم ببضع كلمات؛ فقلت بسرعة:

"سنعطيك ما تريده، فقط لا تجعلها تغيب عن ناظريك."

انطلقت السيارة خلفها بالفعل.
أي سر تخفيه زوج أبي؟
بعد نصف ساعة تقريبا توقفت سيارة سهير أمام مبني قديم ذي طابقين، بدا أن جدرانه قد طُليت حديثًا بلون رمادي كئيب، وكأنه أشبه ببقعة دخان قبيحة، وغير منتظمة الشكل.

"قف هنا يا أسطي."

كانت هند هي المتكلمة. بدا لي من المنطقي ألا نقترب أكثر من اللازم. الاقتراب أكثر قد يهدد بكشفنا وحرقنا، مثل ذبابتين تتجهان للنار بإصرار غريب!
نقدت السائق أجره، ثم اتجهنا إلى شجرة ظليلة نختبيء في ظلالها الوارفة عن عيني سهير، التي راحت تنظر حولها، كأنما تتأكد من عدم ملاحقة أحد لها، ثم توجهت للباب الخشبي العملاق ذي الكوة في المنتصف. من زاوية نظرنا أمكنني أن أراها وهي تدق مرة، مرتين، ثلاثة!
هل هي شفرة؟
انفتحتْ الكوة وبرز وجه غليظ، تأملها لبرهة، ثم فتح لها الباب. دخلت، ثم أغلقه خلفها مرة أخرى.
سألتني هند:

"كيف سندخل؟"

قلتُ وأنا أتقدم من الباب:

"اتبعيني فحسب."

سارت خلفى، وثمة تساؤل صارخ على وجهها لم يُترجم-من حسن الحظ-على لسانها، وأنا أقترب من الباب الخشبي، وأدقُّ عليه مرة، مرتين، ثلاث.

بعد لحظة انفتحت الكوة وبرز وجه الرجل الذي رأيناه منذ دقائق. ذراع هند تنغرس في ذراعي بتوتر.

قال بخشونة:

"لم أركما من قبل."

قلت بسرعة:

"نحن أعضاء جدد."

تفحصنا بعينين نفاذتين، ثم قال:

"من الراعي الخاص بكما؟"

بدوتُ حائرة، وأنا أبحث في ذهني عن إجابة لهذا السؤال. هنا قالت هند بسرعة:

"السيدة سهير."

انفرجتْ ملامح وجهه، ثم فتح الباب. دخلنا لممر طويل، مظلم بعض الشيء. مالت هند نحوي:

"كيف فعلتها؟"

قلت ببساطة، خافضة نبرة صوتي، أقرب للهمس:



"واضحٍ أن سهير ضمن رابطة ما أو جمعية ما تمارس طقوسا شيطانية. أعتقد أنها ضمن الأعضاء. لن أندهش لو كانت تلك الجمعية خاصة بأكل لحوم البشر!"

ضحكتْ؛ فرمقتها محذرة من التمادي فيها.

وسألتها بدوري:

"وأنت؟"

قالت:

"مجرد تخمين."

"تخمين موفق."

كنا قد وصلنا لقاعة واسعة تمتلي بالمقاعد السوداء، وعليها يجلس زمرة من الرجال والنساء. الرجال يرتدون بدلات سهرة سوداء، والنساء يضعن أنقبة سوداء شفافة على وجوههن. يبدو أن الأسود هو الملك هنا.

قالت هند ساخرة:

"هل نحن في الأوبرا؟"

رمقتها بنظرة صارمة لتخرس. جلسنا على أقرب مقعدين، في أكثر الأماكن عتمة. منظرنا بدون نقابين سيجعلنا عرضة للشك والتدقيق.

في آخر القاعة صعد رجل. كان فارع القوام، ذو شارب ضخم معتنى به، ويرتدي بدلة سوداء مثل

الجالسين، لكن عينيه اللامعتين أنبأتا أنه ذوٍ حيثية في ذلك المكان. قال بصوت جهوري ناعم نوعا، يوحي بالاسترخاء، وكأنه ثعبان يتحرك ببطء على الجلد:

"مرحبا بكم إخواني وأخواتي. هذه هي المرة الأولي التي نلتقي فيها وجها لوجه. كلنا تجمعنا هنا، من أجل أن نضع النقط على الحروف؛ فسيدة الظلام ظُلمتْ طوال عشرات السنين، وأُلصقتْ بها التهم، والتي دشنتها شقيقتها المتوحشة" سيدة النور"".

تعالت الهمهمات المنفعلة. عم يتحدث بالضبط، وأي امرأة يقصد؟

واصل الرجل حديثه:

" نحن هنا في انتظارها، وحتى لو لم تعد فلنا الشرف الباذخ أنْ ننتظِرها، ولو طال هذا لأعوام."

هنا رفعت إحدى الحاضرات يدها:

"معذرة. لكن من هي سيدة النور؟"

تِعالِتْ الِهمهمات المنزعجة، وكأن المرأة قد قارفتْ جرما كبيرا. من حسن الحظ أن النقاب الشفَّاف لم يُظهر انزعاجها وخجلها. لكنى أتصوره جيدا. قال بتؤدة وابتسامة افتتان على وجهه:

"إنها من ستقودنا لإكسير الخلود!"



إنه مجنون! عن أي إكسير يتحدث؟ أعرف أن هذا الإكسير هو حلم أناس كثيرين منذ مئات السنين، بل وذُكر في بعض كتب التراث، عن العين التي من يقوم بالشرب منها يوهب عمرا طويلًا. لكنه يظل كلاما خارج القياس العقلي الذي تدعمه الأدلة.

رفع يده، وكأنما أفاق من أوهامه:

"لكن ليس كلنا سينالها. فقط من سيلتزمون الأوامر، دون نقاش أو جدال."

يبدو أن الرسالة للجميع. لا يريد صاحب الشارب الضخم أن يسأله أحدهم عن شيء. فقط عليهم أن يتلقوا كلامه دون مراجعة.

ساد الصمت، وبدأ يدير عينيه اللامعتين فينا. ثم قال بهدوء، وكأنه يحدث نفسه بصوت عالٍ:

"القصة ببساطة تتحدث عن شقيقتين مقرَبتين في أواخر عمريهما، مات عنهما زوجيهما في إحدى الحروب، ومن ثم فقد اجتمعا في بيت عائلتهما، وعاشا معا على السراء والضراء، وكانتا شغوفتين بالمغامرة وركوب الأخطار برغم تقدمهما في السن. كان مسكنهما بالقرب من جبل المقطم. كان هذا منذ سبعين سنة ونيف. ذات صباح يومٍ باردٍ اقتربتا من أحد الكهوف.

كان كهفًا ضخمًا، ذو واجهة معتمة، وكانت هناك ريح ثلجية تأتي من الداخل."

وضعت إحدى الجالسات يدها على فمها. لابد أنها تشعر بالذعر. ولها الحق في ذلك. أنا نفسي بدأت قشعريرة باردة تزحف في جسدي. أكمل ذو الشارب الضخم المنمق:

"دخلتا الكهف، وهناك واجهتا خطرًا شنيعًا. ليس المهم ما هو ذلك الخطر، لكن المهم أن نعرف أنها عثرتا على عين الحياة، إكسير الخلود، وبسبب الطمع قامت واحدة منهما بالشرب فقط، وحبست الأخرى في ذلك الكهف. وهكذا غادرت واحدة منهما الكهف، بينما ظلت الأخرى محبوسة هناك. في العتمة. لكن برغم الظلام الدامس كانت لديها القدرة على إرسال الرسائل لبعض الناس، وإخبارهم بما حدث، حتى يُطلق سراحها، وتخرج لعالمنا، وتبشره بالخلود الطويل. من شربت من عين الحياة، أشرق وجهها، وصار صبوحا، وسرت فيه دمومة الشباب، وسمت نفسها بالعديد من الأسماء، لكن أشهرها هو" سيدة النور"، بينما سيدتنا الطيبة أرادتنا أن نطلق عليها اسم" سيدة الظلام""""

تلك المرة كانت الهمهمات حماسية وتضجّ بالفرحة.

حمقى!
كان من الممكن أن نستمع للكثير من هذا الهُراء الغامض غير المحدد الملامح عن سيدة الدخان، لولا أن يدا ثقيلةٍ هبطت على كتفي، وصاحبها يقول بغلظة هامسا حتى لا يبدد موجة الحماس الجارفة:
"من أنتما، وماذا تفعلان هنا؟"

***

25 ديسمبر 2015

عزيزتي سهام...
في حياتي-التي غدت صاخبة مؤخرا-ظهر وجه مألوف من الماضي. فقد كنت أفكر فيما يحدث لي عندما وجدت أن الباب يدق. فتحته؛ لأجد العجوز الذي سبق أن هاجمني أنا وشقيقتي من قبل. تحفزت في وقفتي وأنا أرفع قبضتي. لم يشلني الجبن في مكاني كما فعل المرة السابقة. لكنه تراجع برأسه للخلف بخوف. شيء ما في عينيه الذابلتين جعلني أشفق عليه. قال بصوت مشروخ:
"هل يمكن أن آخذ من وقتك خمس دقائق؟"
"ماذا تخبيء هذه المرة؟ بازوكا؟"

لم يبدُ أنه قد فهم السخرية الموجهة لوجهه كطلقة اتهام. فقط أومأ برأسه:

"لا شيء. لن أرتبك حماقات مرة أخرى. لقد كنت كريمًا معي لدرجة أنك ضمنتني وأخرجتني من قسم الشرطة."

قلت بصراحة:

"كانت فكرة أختى. قال لي بأنك عجوز، متألم لفراق حفيدته الوحيدة، ويحركك فقط خوفك علي."

"هذا صحيح. لا أريد أن تتكرر الكارثة."

"ولا تجد أمامك سوى أن تذبحنا معا! مرهف الحسّ فعلًا."

قال بضيق:

"أعتذر إليك مما حدث، لكني معذور. لحظة جنون عابرة فقدتُ فيها أعصابي."

"ومن أدراني أن لحظة الجنون هذه لن تعود مرة أخرى؟"

"قم بتفتيشي. لا أحمل أي أسلحة."

كدتُ أهم بتفتيشه فعلًا، لكنى خجلتُ من فعلها. فتحتُ الباب ببطء علامة على ترحيبي الحذر به؛ فدخل، وجلس على أول مقعد قابله.

رمقته بصمت، منتظراَ ما سيقوله. تنحنح قليلًا، لكنى لم أنطق بحرف. جدار عال بناه ذلك العجوز بفعلته السابقة، وأي ود يرجى منَى فهو في حكم المستحيل!

"لم أخبرك عنها من قبل."

"تقصد حفيدتك؟"

أومأ برأسه:

" صاحب المنزل تركه منذ زمن بعيد عندما حدثت أشياء مروعة هنا. كنتُ أعيش أنا وحفيدتي في منزل واسع رحب، لكنها عندما سمعتْ بهذا المنزل وسعره الرخيص قفزتْ فرحا، ولأنها كانت موظفة منذ عامين في شركة كبيرة، وقامت بإدخار مبلغ لا بأس به؛ فقد وجدتْ أنه من الرائع أن ننتقل إلى هنا."

"ثم؟"

قال بغيظ:

"فعلتْ هذا دون أن ترجع إليَ أو تخبرني، وإلا لو علمتُ بما فعلته كنتُ رفضتُ طبعا. لكن سبق السيف العزل."

استوقفته:

"ما الذي تعنيه بأنك لو عرفت مبكرًا كنت سترفض؟"

قال:

" لقدْ أتيتُ إلى هنا من قبل عندما كنتُ شاباً. دعنى أحكى لك أولًا ما حدث مع حفيدتي، وسوف أخبرك بعدها بقصتي مع هذا المنزل. المهم أننا انتقلنا بالفعل، وبدأنا نتأقلم على هنا، ثم بدأت الأحداث الغريبة."

انتصبت أذناي توترا.

"في البداية لم نلاحظ شيئا. فقط ذلك الشعور المزعج بأن هناك من يراقبك."

ابتلعتُ ريقي. إنه نفس شعوري عندما قدمتُ إلى هنا بالفعل.

"ثم بدأت بعدها الهلاوس."

اعتدلت في مقعدي:

"هلاوس؟"

هز رأسه:

"بدأت تستيقظ ليلًا وهي تصرخ. تقول إنها تحلم بمدينة مليئة بالتماثيل الحجرية."

"التماثيل الحجرية. أي حلم هذا؟"

"المشكلة ليست في الحلم يا بني، لكن المشكلة فيها وهي تحكى لي. صرخاتها كانت تعبيرا عن رغبتها في العودة إلى هناك."

"العودة للمدينة الحجرية؟"

"إنها تقول إنها من هناك، وأنها قد أتت إلى هنا ونسيت منشأها ووطنها الحقيقى. أخبرتنى أنها مجرد ضيفة هنا، وتريد المغادرة."

"هل معنى هذا أنها رأت الحلم أكثر من مرة؟"

"كل ليلة. بنفس التفاصيل."

"لم تخبرك عن تفاصيله؟"

"كانت ترى نفسها تسير على رمال من البلور، وثمة جبال عالية تنتشر فيها الخضرة، وتكسو قممها ثلج ناصع البياض يتوهج بالضوء، وكانت تسير مبهورة على غير هدى، وفجأة شعرتْ بمن يحدق إلى ظهرها. تلتفتْ فلا تجد أحدا."

"أكمل."

"راحت تلهث وتجرى، وشعرتْ أنها محاصرة. لكن على الرغم من شعورها بالخوف؛ فقد قالت بأنه يستحق أن يظلَّ المرء فيه طوال حياته."

"حلم غريب بالفعل!"

قال بمرارة:

"لم تكن إلا البداية فحسب يا ولدى."

"كيف؟"

"راحت شخصيتها تتبدل. صارتْ قليلة الكلام، قليلة الأكل، تُحدق إلى النجوم كثيرا، ثم تركت العمل لدى

الشركة. حاولتُ فهم سبب تركها للعمل دون جدوى. ثم بدأت في ارتداء الثياب القاتمة."

قلت بحذر لم أدر سببه:

"ثياب قاتمة؟"

"ثياب سوداء، ونقاب شفَّاف من نفس اللون تضعه على وجهها."

سألته بشغف:

"وماذا حدث بعدها؟"

قال بحيرة:

" كانت تذهب صباحا، وتعود ظهراً. تكرر الموضوع لأسبوع، وكدتُ أُصاب بالجنون، حتى أتت تلك الليلة المشؤومة. بعد منتصف الليل صحوت على غير عادتي. ذهبت لحجرتها؛ فوجدتها خالية. شعرتُ بالرعب، قبل أن أسمع حركة ما قادمة من القبو."

اعتدلت في مقعدي، وقلت مندهشًا:

"القبو؟ يوجد هنا قبو!"

أومأ برأسه.

"قبو قديم ذو رائحة عطنة. عندما نزلتُ إليه وجدتها ملقاة على الأرض فاقدة للوعي، وكانت..."

صمت، ثم قال:

"لابد أن ترى بنفسك."

وأشار لجهة القبو الذي لم أكن أعرف بوجوده قبل اليوم. نهضتُ بحذر، وتبعته بخطوات بطيئة، وأنا أتوقع فخًّا ما. هبطنا درجات السلّم، حتى وصلنا للقبو. حجرة واسعة، ذات جدران رمادية كأنها كُتل من الدخان الجاف، وقد بدت مقبضة وكئيبة؛ مما ذكرني بأول مرة أطأ فيها هذا المكان.

راح يتفحص بعينيه الجدران، ثم توقف عند نقطة معينة، وجذب قالبا. ألقيتُ نظرة دهشة على ما يفعله، وهو ينتزع واحدًا بعد الآخر!

توقفتُ أمام المنظر مبهوتًا، وجسدي يرتجف دون انقطاع، وكأن موجة ثلجية قاتلة هبت بكل قوتها علي. كانت مها محقة تماما؛ فهناك-بقبو المنزل-مقبرة هائلة من الجماجم تراصت بانتظام، وهي تحدّق إلينا بمحاجر خلت من العيون، وسكنتها ظلمة مخيفة!

***

4 نوفمبر 1934

أمي الحبيبة...

كانت الحجرة مظلمة على رحابتها، وأنا أبكى بدون انقطاع. شعرتُ بالرعب من فكرة حبسي بين الجدران،

وتخيلتُ أن الأمر سينتهي بمقتلنا. كانت هند الأكثر هدوءا، وهي تحفر اسمينا على الجدران، بصخرة حادة.
قالت، وهي تركز فيما تفعله:
"لم يحدث لنا شيء حتى الآن، وإذن نحن بخير."
قلت من بين دموعي:
"إنهم ينتوون بنا شرا."
"لا أعتقد."
"ومن أين لك هذه الثقة؟"
لم يُتح لها أن تجيب؛ فقد انفتح الباب، وأطلّ منه الرجل الطويل ذو الشارب الضخم. بدا لزجا، كريها، وهو يلصق ابتسامة شامتة على شفتيه.
"لم نتعرف على الآنستين."
قالت هند ببرود:
"أنت مخطيء في احتجازنا هنا."
ضحك:
"لقد دخلتم بناية خاصة، وتجسستم علينا. من المخطيء هنا؟"
قلت باندفاع:
"لقد جئنا وراء..."
قبضتْ هند على يدي بسرعة، وهي تقول:
"من هي سيدة الظلام؟"

تجمدّتْ ملامحه، ثم انسابت الليونة مجددًا فيها، وهو يقول:

"إنها مؤسسة جماعتنا."

سألته:

"جماعتكم؟"

أومأ برأسه:

"الخالدون."

تمتمت هند:

"أي اسم هذا؟"

"إنه المكان الذي ننتمي إليه."

وشرد ببصره:

"حيث يوجد عالمنا على حدود الخلود."

لم أنطق بحرف يا أمى. واضح أننى أستمع لخبال مجنون، ومع شخص كهذا تغدو الكلمات سلاح ذو حدين. لابد أن آخذ حذري.

فجأة توهجت عيناه بالحماس، ولوح بيديه:

"إنه عالم رائع، تملأه جبال شامخات، تكسو قممها الثلوج، وتنتشر الخُضرة في كل مكان، والحياة هناك أبدية بلا انتهاء."

إنه مجنون حقًا!

بدا أن هند قد انبهرتْ؛ فقد قالت بصوت منخفض، كأنها تحلم هي الأخرى، وإن كانت أحلام يقظة:

"هل يمكن أن يوجد عالم كهذا الآن؟"

رمقها بنظرة ثاقبة، وقال بثقة:

"طبعًا هو موجود، والوحيدة التي تعرف بوابة الدخول هي سيدة الظلام."

سألته:

"لكنك لم تخبرني تفاصيل أكثر عنها."

بدا شاردًا، وهو يقول:

"إنها وحيدة. تعيش في ذلك العالم الرائع بمفردها."

قت ساخرة:

"وأنتم تريدون مؤانستها في وحدتها. أليس كذلك؟"

هز رأسه مبتسما.

هنا تكلمت هند، وقالت أغرب جملة يمكن توقعها:

"كيف يمكن أن أنضم لكم؟"

***

الحقيقة أننا لم نتبادل الحديث إلا لمامًا، وكأننا نلتقط أنفاسنا من التعب. دخلنا المنزل، والألم ينخر في عظامنا.

قلت لها بإعجاب مرهق:

"أنتِ عبقرية!"

قالت هند مبتسمة:
"لماذا؟"
" لقد ظنوك تتحدثين بجدية. أعتقد لو لم تفعلي هذا، وتطلبي الانضَمام إليهم؛ فربما لم نخرج على قيد الحياة من هناك!"
"لكنى لم أكن أخدعهم."
"ماذا؟"
"أريد الانضمام فعلًا."
"هل جننت؟ هل تصدقين هذا الهراء؟"
"بنفس المنطقَ علي ألا أصدقك إذن يا مريم."
"أنا صادقة فيما أقوَل."
قالت بسرعة"
"ما الذي يمنع أن يكونوا على صدق أيضًا."
قلت بسخط:
"لأن ما يقولونه هو الجنون بعينه."
"بنفس المنطق أنت مجنونة إذن!"
قلت بشرَاسة:
"لا تُحيلي إليَ الأمر في كل مرة. أهذا جزائي على أننى صريحة معك."
قالت برفق، وهيَ تبتسم:
"وأنا أيضًا صريحة. لم أنتِ غاضبة؟ لا أفهم."

في تلك اللحظة، كنت أعبر بوابة الفيلا، عندما ارتطمتُ بجسد مسجي على العشب الأخضر. وبسبب العتمة لم أتبين ملامحه جيدًا. سحبته لمصباح قريب، وأمكنني أن أميز وجهه جيدًا.
كان محمد أخي، وأنفاسه تخرج من صدره بصعوبة.

***

25 ديسمبر 2015

عزيزتي سهام...

وقفتُ أمام الجماجم المتراصة فاغرًا فاهي، وأنا أحاول الفهم. ترتيب أفكاري في جمجمتي، التي سيغدو مستقبلها كما أرى، لكن بشكل ما غامض بدأت الأفكار تهرب وتهرول مبتعدة عندي، تاركة الحيرة والضباب.
العجوز بدا أكثر تماسكًا مني في الحقيقة؛ فقد وقف بصلابة، وهو يتمتم بصوت لا يعكس هذا التماسك على الإطلاق:

"ما زالتْ كما هي. كما رأيتها أول مرة."

وبدت مرارة في عينيه وصوته وهو يقول:

"تخيل أنني توسلتُ إليها أن تغادر هذا المكان؛ فرفضت. وعندما ألححتُ عليها قامتْ بطردي."

التفتُ إليه:
"طرِّدتك من البيتٍ؟!"
هز كفيه مستسلما:
"إنها من دفعت ثمن الإيجار؛ فلا يحق لي الاعتراض."
"وماذا بعد؟"
"طبعًا لم أغادر. ألححتُ عليها بأنني خائفٌ عليها، وأننى لن أفتح هذا الموضوع مجدداً. لكنها كانت تتغير فعلًا، كأن..."
قلتُ مكملًا:
"كأنها ليست هي."
حدَّق لوجهى لبرهة، ثم تمتم:
"هو ذاك."
تأملتُ القبو المقبض، وقد عرفتُ الآن سرّ الكآبة التي كانت تعبق الأثير:
"وماذا حدث بعدها؟"
"بدأت تمرض، ويصيبها النحول بشكل غريب. حفيدتي الجميلة، الزهرة اليانعة، صارت هيكلًا يكسوه جلد وعظم."
ثم انفجر في البكاء. رمقته بشفقة. يحمل في قلبه عبئًا تنوء بحمله الجبال. ثم سمعتُ تلك الحِركة. حركة خافتة أتت من الصالة أو من الشارع، أو يخيل الأمر

إليّ، لكن ثمة انقباضًا صنعه قلبي بخشونة جعلني أمِدّ يدي إلى ذراع العجوز، وكأني أطالبه بالصمت. صمت مرغما، وعيناه المتعبتان تنوءان بسؤال لم أملك له إجابة. غادرتِ القبو، وخلفي يهرول هو بصعوبة، وكأنه استشعر خطرا. هنا انقطعت الكهرباء. غرقت الصالة في ظلام دامس، إلا من الضوء القادم من الشارع.
شعرت بوجود أحدهم.
"هل من أحد هنا؟"
وهنا لم أشعر إلا بضربة قويَة على مؤخرة عنقي فقدت الوعي بعدها.

***

عندما استيقظتُ وجدتُ نفسي في تلك الحجرة.
حجرة مربعة، كالحة، ذاتِ جدران من الأسمنت البارد.
بعد أن فتحتُ عينيِ بقليل، وجدتني أحدّق إلى الجدران، وهناك وجدتُ العجوز ينهنه بلا صوت. زادتْ شفقتي عليه أكثر.
"هوِّن عليك. ستكون الأمور على ما يُرام."
قال بقنوط:
"لن نخرج من هنا أحياء يا بنيّ."



كنتُ لحظتها أحدّق في الجدار. كانت هناك كتابة محفورة على الجدران. همستُ متساءلًا، وأنا أقرأ:

"هند ومريم."

قال العجوز من بين دموعه:

"بماذا تهمس؟ لقد مسك جنون المنزل! لقد صرت مثل حفيدتي!"

ثم انفجر في البكاء مرة أخرى بصوت هذه المرة، وأنفاسه تندفع من حلقه، بينما صدره يعلو ويهبط. أصابني الارتباك للحظات، قبل أن ينفتح الباب، ويطل منه رجل رفيع كقلم، لزج كذبابة، ذو عينين ميتتين، وقال بصوت بارد:

"كفّ عن نهنهتك أيها العجوز وإلا قطعت حنجرتك."

يبدو أن التهديد البارد أتى ثماره سريعًا؛ فقد كتم أنفاسه، ونظرة فزع على وجهه، جعلتنى أرثي له. ابتسم بفخر وكأنه فتح عكا، وقال مشيرا إلي:

"أنت! اتبعني!"

"إلى أين؟"

"لا تسل؛ فسرعان ما ستعرف."

تبعته، وأنا أتأمل المكان حولي. دخلتُ لحجرة واسعة لحد ما، وفيها مقعد واحد، وثمة سيراميك قاتم يزينه

بشكل خلا ب، وإن كان مقبضًا كلونه، ثم دخل رجل طويل.

"اجلس من فضلك."

جلستُ على الفور، وهنا تقدم منى خطوات، ثم نظر إلى عيني متأملًا، كأنه يبحث عن شيء ما في بياضهما.

"كيف حالك يا أستاذ حسام؟"

"تعرف اسمي!"

ابتسم:

"استأجرتَ منزلك الجديد منذ أسابيع قليلة."

قلتُ وثمة رهبة تسري كالصقيع في أوصالي:

"صحيح."

"وهل يروق لك المنزل؟"

قفزت صورة الجماجم لذهني:

"لم يعد كذلك."

ثـم قلتُ بعصبية، حيث لم أعد أحتمل هذا الغموض المجنون:

"من أنتم؟"

ابتسم:

"من تظننا؟"

"مخابيل!"

زادت ابتسامته:



"ربما."

ثم قال فجأة:

"ماذا تعرف عن الصندوق؟"

"أي صندوق؟"

تأمل عينيَ كأن الوغد يتأكد من عدم كذبي. من المفترض أن هناك صندوق ما، ومن المفترض أنني أعرف الكثير عنه.

كررتُ بعصبية:

"أي صندوق؟"

ابتسامة ناعمة غامت على وجهه كطيف داكن:

"إنه أقرب للأسطورة."

"وهل تصدق بوجود الأساطير؟"

"أصدق بوجود هذا الصندوق على الأقل."

"لم تخبرني بما فيه."

لحظة صمت، ثم قال:

"يُقال بأن فيه الطريقة الوحيدة للقضاء على سيدة الظلام."

اعتدلتُ في مقعدي، وقد حاز على كامل انتباهي:

"سيدة الظلام؟"

اقترب منى قليلًا. أشار بإصبعه فهرع أحدهم إليه بكرسي. جلس عليه، وفرد ساقه اليمنى حتى آخرها:

"هذا الصندوق نسمع عنه منذ عشرات السنين،
صندوق من الخشب، لكنه ذو مواصفات خاصة جدا.
مواصفات تسمح لأن تعيد الأمور لمسارها الصحيح."
"أي ألغاز تنطق بها؟ ألا يكفي الظلام الغارق فيه أنا
حتى النخاع."

ثم قلت بعصبية:

"ثم إني أريد الاطمئنان على العجوز."

قال بهدوء، وهو يبتسم:

"العجوز! العجوز! لا أفهم! لم لا تقول اسمه؟"

قلت بحرج:

"لأني لا أعرفه."

ضحك:

"هكذا إذن!"

أشار بيده، وبعد لحظات كان العجوز يدلف للمكان، وبقايا الأكل تتساقط من شفتيه. رمقته بغيظ. يبدو أنه يحب الأكل حبا جما. خطر لي أن حب الأشياء (بعكس الأشخاص) لن ينقلب في النهاية؛ ليكسر القلوب. بغض النظر عما يصيب الشرهين من أمراض. جلس بجواري.

سألته:

"هل أنت بخير؟"

لم يجبني. فقط مسح الطعام عن فمه بطرف كمّه.
إجابة عملية بليغة.
"بمناسبة الأسماء. لم تخبرني باسمك."
" الأسماء مخادعة، ولا تهم في هذا المقام."
"ومع هذا يهمني معرفة اسمك."
"شادي."
"ماذا تريد منى يا أستاذ شادي؟"
"أريدك أن تبحث عن الصندوق. تصل لمكانه. دعنى أكو ن معك صريحا. هذا الصندوق هو الضمانة الوحيدة لإنقاذنا من شر سيدة الظلام."
قال العجوز متمتما:
"سيدة الظلام؟ سمعتُ هذا الاسم من قبل. أين؟ أين؟"
قال الرجل، وكأنه أثبت وجهة نظره:
"أرأيت؟ إنها متغلغلة في حياتنا بشكل أو بآخر."
قلت بحذر:
"لو قلت: نعم، ستتركني أغادر؟"
"ولو لم توافق؛ فسأترككما. نحن لسنا قتلة يا أستاذ حسام! نحن لسنا في فيلم أمريكي رديء."
قلت بضيق:
"إذن لماذا هذه الميلودراميا في إحضارنا هكذا؟"

قال بسرعة:
"لأنك مُراقب. ثمة مجموعة ما مخبولة تُدعي "الخالدون" يقومون بمراقبة كل من قاطني البيت. في الأغلب يتم إختيارهم من أجل أهدافهم المريضة."
قلتُ، وأنا أمسك جانبي جمجمتي:
"لم أفهم! لم أفهم!"
قال مهونا:
"رفقًا بنفسك."
ثم نهض، ووضع يديه في جيبي معطفه:
"هناك حكاية قديمة تتحدث عن شقيقتين مقربتين من بعضيهما البعض. ذات يوم كانتا بالخارج، وكان الجو مطيرا، والزوابع تحرك الرمال على مدي الأفق، حتى كادت تتعسر الرؤية. لم يجدا أمامهما سوى أن يحتميا بكهف ضخم، كئيب. لكن صخرة سقطت من فوق الكهف، وردمت الباب عليهما. حبستا بالداخل، لكن بعد أيام خرجت واحدة منهما على قيد الحياة. كانت في أتم الصحة والعافية، بينما الأخرى لم يدل لها على أثر. يقال إن من خرجت هي التي ستسمي نفسها سيدة النور، وقيل إنها سيدة الظلام. لا أحد يعرف."
سألته:
"متى حدثت هذه القصة؟"



"منذ مائة وستين عامًا."

أطلقتُ صفيراً. ربما لأول مرة في حياتي. شيء كهذا لا يوجد له إلا هذ الرد بعينه.

ابتسم، ثم واصل:

"المشكلة هنا أن تلك القصة انتشرت انتشار النار في الهشيم. يقال بأن ثمة كنز عظيم بداخل الكهف."

"مجوهرات؟"

"لا. نبع ماء."

"نبع ماء؟ أي هراء هذا؟"

"يقال بأنه نبع الخلود. النبع الذي من يشرب منه يُرزق حياة أبدية. والبعض يقول بإنه نبع الشفاء الذي يشفى الأجساد العليلة من أمراضها."

قلت بضيق:

"هل تصدق شيئا كهذا؟"

"ليس من المهم أن أصدقه. المهم أن هناك من يصدقون. ستندهش لو أخبرتك أن هذه القصة عرفها الكثيرون، وقرروا البحث عن هذا الكهف، والوصول للكنز."

"وهل وصلوا؟"

تنهد:

"وصلوا للكهف، لكنهم لم يعثروا على الكنز، بل وفقدوا حياتهم جراء طمعهم وجنونهم."
"لماذا تخبرني بهذه القصة؟"
"لأن هذا الكهف هو المنزل الذي تسكن فيه."

***

"أنت تمزح. أليس كذلك؟"
قلتها، وأنا أحاول استيعاب هذه المعلومات الغريبة، وتذكرت الجماجم التي رأيتها منذ ساعات. هل تكون هذه الجماجم هي لأناس تعيسي الحظ، قضوا نحبهم من أجل البحث عن سر الخلود؟
واصل شادي:
"أريدك أن تساعدني على إيجاد ذلك الصندوق. آن لهذا الجنون أن يتوقف. أنت تملك أهمية ما في هذا الموضوع. لا أعرف ماهيتها، لكنك تملكها."
"أنت مخطيء."
"ربما."
"لا يوجد شيء يجبرني على مساعدتك في أمر المخابيل هذا."
قال بضيق:

"لا تضطرني لفعل ما لا أحب فعله."

"بمعنى؟"

"سأفعل ما يجبّ من أجل الوصول لذلك الصندوق."

الوغد كان يقصد عائلتي دون شك. هذا ما خطر ببالي. لكنه قال بعد برهة:

"أنت تحبها. أليس كذلك؟"

لم أنطق بحرف. تأمل وجهي للحظات، ثم أخرج من جيبه صورة، وأراني إياها. دقّ قلبي بعنف. كانت صورتك يا سهام، وأنت تقومين بتناول الطعام في المطعم المواجه لمبني الشَركة. للأسف كان طارق يجلس مقابلك، وهو يبتسم ببلاهة.

"واضح أنك تحبها كثيرا."

قلت بخشونة:

"كنت تراقبها!"

قال بهدوء:

"فتاة جميلة، تعيش بمفردها، بعد وفاة والديها وهي صغيرة. مكا فحة، تعمل بجدّ في شركة والدك. أي أعمى سيدرك أنك تحبها بجنون. فلماذا لم تخبرها حتى الآن."

لم أحر جوابًا. هل أخبره بأنني جبان، حتى لا أقدر على نطقها، والاعتراف لكِ بها؟

قلتُ بسرعة حتى لا أتراجع:

"كيف أساعدك؟"

ابتسم وأشار بيده؛ فظهر رجل. الحقيقة أننى لم أحب مرآه. عينان واسعتان، ذواتا كرتين غائرتين، تاركتين بعض الظلمة حولهما. انقبض قلبي فور رؤيته.

"هذا هو السيد زاهر. إسمح له بأن يدخل عقلك."

انتفضتُ في مقعدي:

"ماذا؟"

رفع يده وكأنه يقوم بتهدأتي:

"لا تخش شيئا. الأمر بسيط."

"لا أعرف ما الذي تريده منى."

قال ببساطة:

"أنت لا تفهم. كل من يدخلون هذا البيت يحصلون على معلومة بخصوص ذلك الصندوق. لابد في فترة ما من حياتهم قبل أن يدخلوا لذلك المنزل قابلتهم معلومة ما."

"لكننى لا أعرف بالفعل."

"بل أنت لا تتذكر."

"بمعنى؟"

ابتسم:

"بمعنى أن هذه المعلومة مطمورة في منطقة مظلمة بعقلك. والسيد زاهر سيزيح الرمال عنها. الحقيقة أننى أريد إزاحة الرمال ليس من أجلى، ولكن من أجلك أنت."

ابتلعتُ ريقي في رهبة. شخص غريب عنى يدخل عقلى ويعبث فِيه كما يريد. والأكثر مدعاة للرعب أن يكشف أشياء لم أكن أعرفها أصلًا، أو يكشفها لي كما يدعي. ما هي الأشياء المخبأة بعقلي، والتي تجعلنى أهرب من تحقيق تلك الخطوة؟ كنتْ أظن أن التنويم المغناطيسي حقيقة بسيطة، علقت بها الكثير من الخرافات والأساطير. لكن ما عاينته كان شيئا مختلفا.

هل أفعلها أم لا؟

كأنما شعر بالسؤال يتردد في ذهني؛ فقال:

"لا تخش شيئا؛ فكل أسرارك في أمان."

"كيف ستفعلها؟"

"أيًا كانت الطريقة؛ فلن تؤذيك. كن واثقًا من ذلك."

تنهدت:

"فليكن."

قلتها، وأنا أحاول الهروب من لعنة التردد. اقترب الرجل منى. وضع يده على جبيني، ثم أغلق عينيه. شعرت بما يشبه الارتجاج في رأسي في البداية، ثم دوار

سخيف اكتنف عقلي، وانزلقتُ في هوة عميقة مظلمة. وكان آخر خاطر يأتي لذهني أن ما فعله لا يمتّ بصلة للتنويم المغناطيسي، وأننى سقطت في الفخّ كغر ساذج، لكن بعد فوات الأوان.

***

عندما صحوتُ كنت هناك.
شارع شبه مظلم، أسفلت بارد، مبلل بقطرات المطر، وكان يقف رجل بالقرب منى بعدة أمتار. الحقيقة لم أتبين ملامحه جيدا. كان متوترا، وهو يفرك يديه المختفيتين داخل قفاز جلدي، وهو يتلفت يمنة ويسرة. كانت المياه تتساقط على رموشي؛ فتؤثر على رؤيتي، لكن بمزيد من التركيز أدركت بذعر أننى هو!
كدت أصرخ من هول ما أراه، وأنا أحاول استجماع شتاتي أفكارى وارتباكي، وأتذكر أننى كنت هناك بين يدي الرجل الذي اقتحم عقلي. لكنى لم أصرخ؛ فقد ظهرت فجأة، وكنت تضعين مظلة على رأسك.
خفق قلبي، وقد أدركت أنها ذكرى مخبأة ضبابية في الماضى البعيد. لابد أننى الآن جالس على مقعدي البارد، غارقٌ في ماضي الذي عاد ليطاردني بما هو مخبأ في

أعماقه. بشكل ما عجيب، كنتُ أنا من يقف أمامك، أشعر بالبرد الذي يجعلني أرتجف، لكنى أتجاهله؛ بسبب الإثارة التي تسري في عروقى. الحب: ما قيمة الحياة بدونه؟ التاريخ بالنسبة لي هو لحظات الحب والفراق.

"أظن أننى أحبك يا سهام."

قلتها لك، وأنا متهدج الأنفاس، محمر البشرة. من المثير أن أرى نفسي على بعد أمتار.

صرخت، ربما محاولة منك لتتغلبي على صوت السيارةً ذات الصوت المزعَج التي تقترب منا:

"ماذا تقول؟"

في نفس اللحظة توقفت سيارة سوداء، وهوتْ هراوة على عنقي، وساد الظلام فجأة، مع شعورٍ كاسِحٍ بالألم في رأسي. لكن عندما فتحت بصري كنت مقيداً فيما يشبه مخزن قديم متسع، وضوء الشمس يدخل من النوافذ المفتوحة العالية، وأنت مقيدة بجواري، وكنت مكممة الفم، وعيناك تنبئانَ عن خوفٍ رهيبٍ، بينماَ هوَ يقف هناك.

ثلجي الشعر، مع سمرة خفيفة بدت متناقضةٍ في وجهه، واقترب منى بخطوات عرجاء خفيفة، متكئا على عصاه الأبنوسية.

" أعتذر إليك بسبب إحضاري لكما بهذه الطريقة الفظَّة. لكن إذا عُرف السببُ بطُل العجب كما يقولون."

هممتُ محاولًا قول أي شيء، لكن الشريط الموضوع على فمي جعل هذه المهمة عسيرة.

أكمل الرجل:

"هذه النقطة لا تحتاج لثرثرتك. فقط هزّة من رأسك علامة على الموافقة، وسينتهي كل شيء."

على أي شيء أوافق بالضبط؟ قلتُ هذا بدون صوت. ليس من المستغرب أن يكون قد سمع السؤال أو حتى استنتجه؛ فقد قال:

"لقد تم اختيارك من أجل أن تكون حجر زاوية في حدوث شيء ما رهيب. شيء ما سوف يؤثر على ميزان هذا العالم. المفترض أنه لا توجد وسيلة لكي نوقف هذا الشيء الموشك على الحدوث. لكن يمكننا أن نحاول. صحيح أن احتمالات النصر تكاد تكون معدومة، لكن يكفينا شرف المحاولة. ستكون الخيط الذي يدلنا على معقل تلك الجماعة التي تدعي" الخالدون". إنهم مخبولون يتبعون أسطورة امرأة يشك أصلًا في وجودها تُدعي سيدة الظلام. ليس لديك فكرة عما ارتكبوه من

جرائم من جرّاء اعتقاداتهم المخبولة في ولوج عالم أبدي في هذه الحياة الفانية!"
توقف عن الكلام ريثما يأخذ نفسا عميقًا، وقال برفق، وهو يبتسم:
"لو كان لأحد أن يجرى وراء الأبدية فسيكون أنا، لكن لا أريد لحيَاتي أن تنتهي بهذه الطريقة يا فتي. المهم أنه ذات يوم سيتم استدعاؤك وجلبك لمقرهم. هذه خطوة حتمية لا يمكن التملص منها. عندما يحدث هذا سنكون وراءك. نتبع خطواتك. لهذا أريد موافقتك على حدوث هذا. فقط هزة من رأسك ستكون كافية لنعرف أنك موَافق."
لم أ فعلها طبعا. ما زلت في الظلمة، ولم أفهم أبعاد الأمر بوضوح.
قال، وقد لاحظ سكوني:
"نسيتُ أن أخبرك بأننا بين خيارين: أن نقتل حبيبتك، أو أن توافق. مقتل حبيبتك سوف يدمرك نفسيا، وسيجعلك غير مؤهل أصلًا للاستعانة بك فيما بعد. الحزن يدمر. تسألني كيف؟ حسنا، لو قتلنا حبيبتك الآن؛ فسوف نقوم بإرغامك على النسيان. ستنسى أنك قتلتها، لكن سيظل الذنب مترسبا بأعمق أعماقك. سيأكلك يوما بعد يوم، حتى تصير حطام

رجل بائس ومُعذَّب. لكن بموافقتك الآن سوف تقوم بالمساعدة في حمايتها الآن، وربما حمايتها أيضا من النهاية القادمة. صحيح أنكما لن تكونا معا، لكن لا أحد يأخذ كل شيء، وإلا ستكون الحياة مملة. أليس كذلك؟"

أيًا كان هذا الهُراء المجنون الذي يتفوه به، لكن يبدو أنه مقتنع به جدا. ثم أي شيء هذا الذي سيجعلني أنسي؟ من المستحيل أن أنسى.

أومأتُ برأسي موافقا. ابتسم. اقترب منى، وهمس في أذني:

"قرار حكيم."

فور أن قالها، أخرج من جيبه حجرًا أزرق اللون، يلمع بشكل غريب. تأمله بإعجاب، وهو يقول:

"يسمونه: حجر النسيان."

وألصقه بجبهتى برفق، وهو يقول:

"ومن خلاله ستنسي أنك قابلتنا أصلا، أنت وحبيبتك هذه."

حلَّ ظلام دامس، وعندما فتحتُ عينيَ وجدتُ نفسي في مقعدى-كما كنت سابقًا-أرمق الرجل الطويل، وأنا أرتجف من الانفعال!

الآن فهمتُ سرَ ترددي في إخبارك عن حبي لك، وإذن لم أكن نذلًا أو جبانًا، بل كنت أحَميك. لكنّ هل هذه الحقيقة حقًا؟ ألم أكن أنقذ نفسي مَن هذا المجنون الذي هدد حياتي حياتك؟

أما الرجل الطويل فقد راح يتحدث بسرعة للرجل الوسيم الذي تمعر وجهه من الرعب، وقبل أن يتحرك خطوة واحدة اقتحم مجموعة من الرجال المكان.

كانوا يرتدون زيا أسود غزلت بعض خيوطه لتظهر رسما متقنا مرسوما على الظهر. وبين الرجال ظهر الرجل السبعيني ذو الشعر الأبيض، وهو يبتسم، وعصاته تدق على الأرضية بشكل منتظم واثق.

"ها نحن نلتقي مجددا يا أستاذ حسام. كم مضى على لقاءنا الأول؟"

قلت بتلقائية ورهبة:

"ثلاث سنوات!"

أومأ برأسه:

"ثلاث سنوات! لكم تغيرت الكثير من الأمور أثناء تلك الفترة القصيرة."

ثم ألقى نظرة باردة على الرجل الوسيم، وقال:

"أما أنت فبيننا حديث طويل وممتع."

قال الوسيم ببرود، دون أن ترتجف عضلة واحدة في وجهه:

"لو كنت تظن أنك قد انتصرت فأنت واهم!"

أشار ذو الشعر الثلجي حوله:

"حقًا؟ أأنت أعمى؟"

هزّ رأسه، وابتسم فيما بدت لى كابتسامة غامضة:

"مجرد جولة في المعركة. لكن الكلمة الأخيرة لم تُقل بعد."

تأمله وهو يداعب قمةٍ عصاه الأبنوسية:

"أنت تعرف شيئًا لا أعرفه."

قال فيما بدا أنه شفقة:

"لا يمكن مواجهة المحتوم. ألم تفهم بعد؟"

"تجربتي تقول العكس."

"أحمقٌ أنت إذن!"

"تأدب."

كان من المثير أن أراهما، وهما يرمقان بعضهما البعضٍ، في ِكراهية، لكن ما كان يشغل فكٍري أننى عرفتُ أخيرا سبب ما حدث. أتشوق كثيرا لإخباركِ بالحقيقة.

بعد أن غادرنا المكان للخارج. نور الشمس الدافئ ينسف كل الخيالات المعتمة التي كانت بالداخل. قال

الرجل ذو الشعر الثلج لي، بعد أن حكيتُ له ما مررتُ به:

"سيدة النور مجرد أسطورة يا فتى. شخصية غير موجودة في عالمنا. ما هي إلا مجرد واجهة تختبيء وراءها سيدة الظلام."

كنتُ أرتعد من المفاجأة. لقد خُدعتُ إذن! كأنما وجد أن ما قاله غير كاف؛ فقال:

"إنك مجرد بيدق في رقعة شطرنج هائلة. إنها تستغل رغباتك وأحلامك في استخدامك من أجل تحقيق هدفها الأكبر."

"وما هدفها الأكبر؟"

"ألم تفهم بعد؟ أن تحرق هذا العالم عن بكرة أبيه طبعا!"

***

كان مرافقي العجوز متعباً، وهو يكاد يسقط بجواري، ونحن نتجه للخارج. أقللته، واتجهت به لمنزله. قال لي، وهو يريح رأسه على مسند مقعده:

"هذا الرجل."

"من تقصد؟"

"الأشيب."
"ماله؟"
"لقد رأيته من قبل."
قلت مبتسما:
"كما سمعتَ عن اسم سيدةٍ الظلام من قِبل."
"أؤكد لك أنه مألوف جدا بالنسبة إلي."
قلتُ له، وقد تذكرتُ حديثي السابق مع الوسيم:
"لا أعرف اسمك حتى الآن."
قال ببساطة، وهو يغفو:
"اسمي حاتم."

ونام بالفعل. بعد مرور نصف ساعة تقريبًا وصلتُ لمنزله. كان منزلًا قديما، تفوح منه رائحة القدم. وضعته في سريره، وأنا أشعر بالشفقة عليه، وكدتُ أنصرف لولا أني لمحت حجرة جانبية ملأى بالكتب، واللوحات. رحتُ أتفحص العناوين بعيني. يبدو أنه مهتم، أو كان مهتما بكتب السحر، والماورائيات. كانت هناك عدة لوحات زيتية معلقة على الجدار، وكانت هناك لوحة على هيئة لفافة مطوية مستندة إلى الجدار. رحتُ أمرر راحتي على اللوحات. هنا شعرتُ بحركة خفيفة خلفي. التفتُ؛ فوجدتُ حاتم ينفض النوم عن عينيه.
"أما زلت هنا؟"

قالها، وهو يتثاءب.
قلت مبتسما:
"أهذا هو كرم الضيافة؟"
تقدم بضع خطوات، وقال بفخر، ولم يعلق على دعابتي:
"كنتُ أحب الرسم جدا في شبابي. تعرضتُ ذات مرة لغيبوبة استمرت لعام أو أكثر. لا أتذكر. في هذه الغيبوبة عرفتُ هدفي الحقيقي. هو أن أمارس شغفي، ولا أضيع ثانية واحدة من أجله. لهذا شرعتُ ممارسة الرسم. إنه شغفي."
وأشار للوحات:
"تجد هنا من أحببتهم وكرهتهم. لم أتجاهل أحدًا. بشكل ما وصلتُ لما أنا وصلتُ إليه؛ لأنهم ظهروا في حياتي."
قلتُ معقبا على الكلام العظيم الذي لا يتناسب أبدًا مع شخص صحا لتوه من النوم:
"أو الذين أصررتَ أن يكونوا في حياتك."
هز كتفيه:
"سيان."
كان يتكلم وكنتُ أتحرك ببطء في المساحة الضيقة المسموحة؛ فارتطمت قدمي بدون قصد باللفافة. بدا

ذعر غريب عى وجهه، وهو يثب لالتقاطها قبل أن تسقط.

قلت معتذراً:

"لم أقصد أن..."

قاطعني، وهو يحتضن اللفافة:

"هذه صورة الفتاة التي كنتُ أحبها. رسمتها ذات صباح بارد في حديقة فيلتها. كانت بصحبة صديقة لها."

وسالت دمعة من عينه:

"لكم اشتقتُ إليك يا مريم."

مريم؟ دقّ الاسم ناقوسا في ذهني. سمعتُ أو رأيتُ هذا الاسم من قبل. أجل، أجل. في الزنزانة التي كنا فيها من قبل. هل تكون هي. لو كانت هي بالفعل؛ فلابد أنها مصادفة غريبة. ترين يا سهام كنتُ مندهشًا، والأفكار تدور في عقلي كإعصار لا يتوقف عن الحركة. أثناء شرودي توقفتُ أمام لوحة تشبه إلى حد كبير الرجل ذو الشعر الثلجي. قلتُ مرتجفاً، وأنا أشير للوحة:

"من صاحب هذه الصورة؟"

التفت إلى اللوحة، ثم قال بغلّ:

"إنه وغد حقير، كاد يودي بحياة مريم ذات مرة!"

ثم بدا على وجهه التشكك:

"أشعر أننى قابلته منذ فترة قصيرة."

رمقته بغيظ. يا لذاكرتهِ الزئبقية! لقد قابلناه منذ ساعات أيها العجوز. أنسيتَ أنك ألمحتَ إلى أنك قابلته من قبل؟ وجدتني أجلس على أقرب مقعد لي دون أن أفهم أي شيء!

***

10 نوفمبر 1934

أمى الحبيبة...

أجلس بجوار أخي محمد طوال الليل، بينما أنال قسطًا مِن الراحة ما أن تشرق الشمس. لا أريد تركه وحيدًا بالليل. كان وجهه شاحبا، بينما كل بضعةٍ ساعات تأتي هند للاطمئنان. أما سهير فلم أرها إلا لماما. زوج أبي المخلصة لا تتوان عن إبراز معدنها الرديء في كل موقف. تأملت وجهه الغارق في الشحوب وقلبي ينقبض من الخوف والرهبة. ماذا حدث لك يا أخى العزيز؟

غيبوبة غامضة أصابته. إنها ليستْ المرة الأولى التي أواجه فيها شيئا كهذا. من قبل فقدتُ حاتم، قبل أن يعود. لكن هل عاد فعلا؟ صحيح أننى رأيته، يحوم في الشوارع كالمخبولين، لكنه لم يعد ذات الشخص الذي أحببته من قبل. هذا يقودني لسؤال في غاية الأهمية يا أمي:

هل أحببته فعلًا؟

أحيانًا أشعر أننى لا أعرف نفسي، لا أعرف ماذا أريد. لابد أننى نمت. الشمس كانت قد غربت منذ ساعتين، ومعها الطبيب الذي قال بأن درجة حرارته المرتفعة ستنخفض بالكمادات الباردة. كنت في حاجة ماسة للنوم، لكني لم أستطع تركه. لابدٍ أننى نمت بجواره عندما شعرت بذلك الشيء مجددا. من النافذة لمحت ضوءا أزرق. ذك الضوء الذي رأيته منذ شهور طويلة عندما زارني أبي في غرفتي. هل كانت شهورا بالفعل؟ لماذا أظنها قرون موغلة في الزمن. الزمن عجيب! حقيقة كنت متعبة لدرجة أننى لم أنهض من مكانى. بدا لي الأمر سينضم لسلسلة الغرائب التي أواجهها في الفترة الأخيرة.

غفوتُ من الهمّ والحزن، لعل السلام يُبعث في قلبي المتعب. لكن تلك ِالخطواتِ التي بلغت مسامعي جعلتني أفتح عيني مجددا، وصورته تقفز لذهني.

"أمي!"

قلتها بلوعة، تعبر عن حاجتي الشديدة إليك. وجدتُ القوة لأنهض هذه المرة. فتحت الباب المغلق بلهفة؛ لأجده أمامي. كان طويلًا يستقر وجهه في العتمةِ. أتراجع للخلف برهبة. برز وجهه أخيراً. صرخت:

"أنت! كيف دخلت إلى هنا؟"

تقدم مني الرجل الطويل، ذي الشارب، والذي كان يخطب في هؤلاء المخابيل متحدثًا عن سيدة الظلام، والتي ستأخذ بأيديهم إلى السعادة.

"مفاجأة! أليس كذلك؟"

"كيف دخلت إلى هنا، وماذا تريد؟"

ألقى نظرة لا مبالية على أخي.

"أخوك مريض."

"لا شأن لك بأخيَ، وغادر المنزل فورًا."

قال برفق:

"أكنت تظنين أنك ستفلتين بفعلتك، أو أن خدعة صديقتك الماكرة سوف تنطلي علي."

صرخت بأعلى صوتي:

"النجدة! النجدة!"
قال بدون أن تتغير لهجته.
"لا أحد سيتقذك. أنت بمفردك تمامًا."
"كيف عَرفت عَنواني؟"
قال مبتسما:
"لقد تلقيتُ مساعدة صغيرة."
"ممن؟"
لم يجب. فقد انزاح جانبا، كاشفًا عن شخصٍ آخر يقف خلفه. قلتُ بمرارة وغيظ:
"الآن تبدو الأمور منطقية."
قالت سهير وهي تخطو للأمام:
"لقد طلب مني السيد فريد عنوانك فأعطيته إياه."
كانت الفكرة الأولى التي تعربد في ذُهني هي حماية أخي من هذين المختلين. محمد لن ينجو منهما، وهو ليس له غيري في هذا العالم البائس. وقفتُ بينه وبين أخي، وأنا شبه واثقة أن الموت هو مصيري.
نضح وجهه بالقسوة، وبالغضب، وبالانفعال، وتراقصت عضلات وجهه بوضوح.
اقترب مني بحركة سريعة؛ مما جعلني أجفل للخلف هاتفة:
"إياك!"

كمن ذكرته الكلمة بشيء ما؛ فتوقف عما ينوى فعله. ثم ألقى نظرة على أخى الراقد في سريره، وخطا ناحيته.
قلت بقلق:
"ماذا ستفعل؟"
"سأقوم آسفًا بإيذاء أخيك! هذا جزاء من يدخل لمنظمتنا، ويقوم بخداعنا. وَبعدها سأقوم بتأديب صديقتكِ الكاذبة هذه. ستعطيني عنوانها بكل سرور."
"لن تجرؤَ!"
ضحك مستهترًا. عنده حق. لا توجد قوة على الأرض تستطيع منعه من سحقي أنا وأخي.
هنا قالت سهير بعصبية:
"لِمَ نتفق على هذا!"
التفت إليها بشراسة. كررتْ:
"لقد اتفقنا أن أدخلك إلى هنا لإرسال رسالة تحذير فقط. لكن أن تؤذيها أو تؤذي الفتى. هذا أمر يفوق الحد."
سهير تدافع عني؟ عجيب!
قال بصوت مزلزل:
"إنما أنفّذ إرادة سيدة الظلام."
سألته بضيق:
"وهل سمعتَ منها هذا صراحة؟"

"ماذا تعنين؟"
انفجرت فيه غاضبة:
"يعني أنت تتحدث عنها طوال الوقت. سيدة الظلام قالت. سيدة الظلام أمرت. سيدة الظلام... الخ."
"هل تشككين في كلامي؟"
تراجعتْ للخلف، فيما بدا أن غضبته قد أخافتها:
"أنت تتحدث عنها طول الوقت. لا أحد منا قد رآها."
حدّق إليها:
"وهل معنى هذا أننى كاذب؟"
لم تنطق بكلمة. صحيح أنها تدافع عنى هنا، لكنى- أعترف- كنتُ مستمتعة بما يحدث. خطر لي أن أعظم أحلامي ستتحقق الآن حينما يفتك بها.
بدا الظفر على وجهه. اقترب من أخى مجدداً، وقد قررتُ أنا الفتك به هذه المرة. مدَّ يده إلى محمد، وهنا بدأتْ ابتسامةٌ تشرق على وجه سهير. ابتسامة لم أرها من قبل. ولدتْ الابتسامةُ في عينيها أولًا؛ كبريق خافت لافت للأنظار، ثم راحت تتألق على وجهها؛ فأشرق!
لم تكن الابتسامة صافية، بل كانت غامضة، خبيثة، متلونة، وعلى الرغم مني وجدتُ قلبي يخفق ركضًا!

لابد أن نظرة الذهول على وجهي قد لفتتْ انتباهه؛ فنظر إليهاْ. بدا حقيقة أنه فوجيء بها وهي تبتسم.
اضطربت ملامحه لحظات، لكنه ثار بعناد الثيران:
"لماذا تبتسمين يا حمقاء!"
قالت بهدوء بارد، كالصقيع:
"لم أر شخصًا وقحا يتكلم باسمي كما فعلت أنت!"
"يتكلم باسمك أنت؟ ومن أنت أصلًا حتى يتكلم المرءَ نيابة عنك؟"
قالت وابتسامتها تتسع:
"خمن."
كان الأمر بالنسبة لي يفوق أكثر كوابيسي شناعة.
وجدتُ نفسي ألتصق بالجدار، أما فريد الأحمق فلم يكن قد فهم بعد.
أشارتْ بيدها بحركة سريعة وكأنها تكسر شيئًا وهميا. وهنا صرخ فريد. صرخ من أعمق أعماقه، وهو يهوى أرضا، ورأيت ساقه تلتوى تحته، وكأن قوة غير مرئية تقوم بعملها ببراعة!
كانت سهير تبتسم بتلذذ.
همس فريد وسط ألمه وجنون ودهشته:
"سيدة الظلام؟"

التصقتُ أكثر بالجدار. **سهير هي سيدة الظلام**؟ الآن تتسق الأحجيات، وتصنع صورتها المخيفة. كنتُ أشكُّ بأني أوى وحشًا تحت سقف بيتي. الآن أدرك أننى على حق.

اقتربتْ منى. الخوف يتواثب على صفحة وجهي. ثم كأنها تذكرت شيئًا ما؛ فقد تقدمت من فريد الذي ينظر إليها بخوف وألم.

"ستكون مهمتك أن تحميها يا فريد. لو أصابها سوء فسأذيقك من العذاب صنوفًا! وأنا قادرة على هذا."

أومأ برأسه.

ثم اقتربتْ منى، قائلة:

"اكتبي إلى أمكِ. اكتبي؛ فربما تسمعكِ حيث تكون."

قلتُ كالمنومة:

"أنت سيدة الظلام؟"

لم ترد. فقطَ ابتسمتْ، واقتربتْ أكثر:

"ترين أننى لستُ مخادعة أو كاذبة، وأننى في الواقع أحميك. لا عندما أخبرك أنه ليس أباك؛ فصدقيني."

وكما ترين يا أمي؛ فأنا لا أفهم شيئًا. تتزايد مساحات الظلام حولى. فريد يلازمنى كظلي. لا أعرف ما يخبئه لي الغد.

وللأسف لم تعودي موجودة حتى تربتى على كتفى،
وتبتسمي في وجهي، وتخبريني أن القادم أفضل!

***

31 ديسمبر 2015

عزيزتي سهام...

ما هي القاعدة الأولي للذين لا يشعرون بالوحدة في هذا العالم؟

لا تقضوا ليلة رأس العام بمفردكم. لكني ها أنا ذا أفعلها. أجلس في الصالة، وأنا أمدد قدمي على مقعد خشبي صغير، وأمامي طاولة متناثرة عِليها بعض صور الأشِّعة، وملاحظاتٍ طبية. أمرر عيني عليها، وكأنى لا أصدِق، ثم وجدتُ نفسى أضحك فجأة بصوت عال. لكن ضحكتى بترت فجأة على صوت جرس الباب. خطر لي أنه العجوز حاتم، لكنه لم يكن هو. كنت أنت تقفين مرتدية ثوبا أسود بدوت فيه فاتنة، ووجَدت َنفسي أحدق في وجهكِ َدون حراك. ضحكتِ:

"هل ستظل تحدِّق فيَ هكذا للأبد؟"
قلتُ بسرعة:
"سأفعلها بكل سرور."
ضحكتِ مرة أخرى:
"يا لكَ من مبالغ!"
كدتُ أخبرك بأنني لستُ مبالغًا، لكن لم يعد الكلام مجديًا على كل حال. كنا ما زلنا نقف على الباب.
فقلت مبتسمة:
"ألن تدعوني للدخول، أم أنني قد أتيتُ في وقتٍ غير مناسب؟"
قلتُ بسرعة، وقد فهمتُ المعنى الخبيث الذى يختبيء خلف سؤالك:
"أؤكد لكِ بأنه باستثناء الجماجم التي تملأ القبو؛ فلا يوجد أحدٌ آخر عندي!"
ضحكتِ، وقد ظننتني أمزح.
"يبدو أنك شربتَ نوعا فاخرا من الخمور يا بني."
"تعرفين بأننى لا أشرب."
"أمزح يا بني. أمزح."
ثم غمزت بعينك اليمنى؛ مما ذكرني بمها العزيزة:
" ثم إن الخمور- حسبما أظن- لا تغير الأشخاص كما تغيرتَ."

"هل ترينني قد تغيرت فعلًا؟"
سألتك بلهفة. بدا التردد على وجهك، ثم قلتِ، وكأنك تهربين من مصيدة السؤال:
"هلِ سأظل واقفة على بابك طويلًا؟"
قلتُ، وأنا أفتح الباب على مصراعيه:
"إنني أفتحه منذ آماد طويلة لو كنت لا تعلمين!"
للحظة شعرتُ بأن ثمة تغير على وجهك. هل شعرتِ بما تحمله كلماتي من شوق ولهفة؟ ربما. ثم تذكرتُ فجأة أن سري يوشك أن يكتشف؛ فانزلقتُ من بين يديكِ، وأنا ألملم الأوراق وصور الأشعة، وأدسها خلف وسادة عريضة، وأنا أقولك معتذرا:
"تعرفين كيف يعيش العزاب."
جلستِ، وأنت تهزين رأسك:
"أنسيتَ أنني واحدة منهم؟"
"أما زال والدك يجنّ من تصرفاتك؟"
ضحكتِ بمرح:
"كثيراً. فوضاي ونزقي يدفع ثمنهما هو للأسف. برغم أننى في العمل كالساعة السويسرى، لكنى في المنزل فوضوية لأقصى حدود الفوضى."
"لابد أنه قد ندم على اليوم الذى جعلك فيه تحت وصايته، بعد رحيل والديكِ في ذلك الحادَث الأليم."

اربدَّ وجهك. قلتُ بحرج:
"أنا آسف. لم أقصد أن أذكرك بما حدث في الماضى."
قلت بمرح مفتعل:
"أنا لم أنس حتى أتذكر. للأسف لا يوجد جهاز يقوم بمسح الذكريات المؤلمة من مخ المرء."
"ولو فرضنا أنه يوجد جهاز كهذا؛ فماذا عن الآلام التي تترك بصمتها في القلب؟"
أومأت برأسك:
"أنت على حق يا بني. أنت على حق."
قدمت لك زجاجة عصير:
"لم تجيبي على سؤالي يا سهام."
أخذتِ رشفة من زجاجتك، وقلتِ:
"وما هو؟"
"هل ترينني قد تغيرت؟"
"لا أعلم. ثمة تغيير بالفعل، لكن لا أعلم حجمه، وهل هو للأفضل أم للأسوأ."
قلت بقنوط:
"كلامك يجعلني أبتهج."
ضحكتِ:

"نحن في ليلة رأس السنة. عام جديد قادم، وأنت مصمم على اقتناص الكآبة. ما يدريك أو يدريني أين سنكون العام القادم."

قلتُ لك بدوري، وكأني أردُّ لك الكرَة:

"أنتَ على حق."

سألتني بعدَ برهة من الصمت:

"هل ستخرج؟"

"ليس لدي مزاج لذلك."

فحصت وجهي:

"مالك؟"

الحقيقةِ أننى كنتُ حائرا بين إخبارك بأننى أحبك، أو أخبركِ بسري الرهيب، ثم وجدتُ نفسي أندفع بحماقة، وأقول:

"لديَ عشرات الجماجم بأسفل، وأريد التخلص منها، وإلا سأتهم بأنى سفاح القرن الجديد."

مططت شفتيك:

"الدعابة تُقال مرة واحدة."

كنت في تلك اللحظة تتأكين أكثر على الوسادة، ووجدَت طرف صور الأشعة اللامعة يبرز طرفها، وبشكل تلقائي، كانت أصابعكِ تداعبها. كنتُ أدرك أنها

مسألة وقت قبل أن تعرفي الحقيقة؛ مما جعلني أقف بسرعة، وأنا أقول:

"دعيني أريك."

تأملتني مندهشة.

"أأنتِ جاد في كلامك؟"

قلتُ، وأنا أهز رأسي:

"سيكذبني القبو، أو تشهد عشرات الجماجم هناك بصدقي!"

نهضتِ بتردد، وكأنك خشيت أن أنوى بكِ شراً. قلتُ بضيق:

"أتخشين على نفسك منى؟ لو كنتِ كذلك؛ فلم أتيت إذن؟"

قلت بصوت هامس:

"لا أعلم. سرتُ كثيراً في الشوارع، ووجدتُ قدمي تقودنى لمنزلك الجديد."

وتأملت الصالة قائلة:

"الذى لم يكن جديدا جدا كما تخيلتُ."

"لو أخبرتك بما أراه فستتهمينى بالجنون."

"فلنبدأ بالقبو أولاً. لو وجدتُ الجماجم كما تقول؛ فأنت سفاح، ولو لم أجدهم فأنت مجنون! لك أن تختار بين التهمتين."

"أنصفت إذن."
قدتُ المسيرة للقبو، وسرنيَ جداً أن أرى الذهول على صفحة وجهك، وأنت تحدّقين في الجماجم.
"لم تكن تمزح!"
"أخبرتك أنني لست كذلك."
رَمقتني بشك:
"هل تقيم في منزل بأسفله مقبرة من الجماجم؟ هل أنت مجنون؟"
"هذه هي المشكلة. أنا لا أكترث حقيقة باكتشاف أمري. لقد ظللتُ هنا لشهور قليلة دون أن أعلم بوجودها، وأعتقد لو ظللتُ هنا لأعوام فلن يتغير شيء."
"أنت مجنون إذن."
ثم لفت انتباهها شيء.
"ما الذي يوجد خلف جدار الجماجم؟"
"لا أعرف. لم أصل لأبعد من هذا."
"على الأقل فلنعرف أبعاد الكارثة التي تقطن فوقها."
ووجدتك تنزعين فردتي حذائك، وتدفعين بها الجماجم، التي راحت تتساقط للداخل، كاشفة عن فجوة مظلمة واسعة بالخلف.

"ماذا تفعلين يا معتوهة؟!"

سألتك، وأنا أتراجع للخلف مندهشًا من ردة فعلك، وسرعة بَديهتك. للحظة تخيلت بأنك تهربين من خلال نزقك وطيشك من شيء ما. هل يكون هو طارق؟ لم أسر كعادتي. يَحزننى أن أراك حزينة. تهربين من الألم من خلال ما فعلتيه.

تبعتك، لأجد نفسي بداخل ممرٍ واسع، ينتهي بباب أخضر، مَرسوم عليه تنين ينفث نارا، يشبه كثيرا الباب الذى وجدته في منزل سيدة النور. في تلك اللحظة أمكنني أن أتمهل لأقرأ الكلام المكتوب بخط كوفي جميل. وقبل أن أنطق الكلمات، وجدتك تلفظينها بتؤدة:

"أيها الداخلون. اتركوا وراءكم كل أمل."

***

6 نوفمبر 1934

أمى الحبيبة...

تخيلي حالتى وأنا محاصرة بامرأة خطيرة لها لقب يجمد الدم في العروق، وتحمل اسم" سيدة الظلام"، وبين رجل يقوم على حراستي من أجل هدف ما لا أعرف ما هو، وبين قلقى على أخى محمَد.
صارت عادة لي أن أجلس بجواره. جسده ساكن، إلا من أنفاس بطيئة منتظمة. الحقيقة أنه لا يوجد لي في العالم سواه. صار أقرب شيء لي هو مفكرتي التي أكتب إليك من خلالها الآن. بالأمس حدث شيء غريب، هذا لو افترضنا أن ما مررت به سابقا يدخل في حكم العادي. كنت أداعب صفحات إحدى الروايات المفضلة لي، عندما لمحت نورا ينبثق من أرفف الكتب. كان ثمة ضوء أزرق قادم من أوراق الكتاب الغريب الذى أخذته من حاتم من قبل. نهضت بحذر، وتناولته؛ انطفأ النور، حتى خلت أننى أتخيل هذا. رحت أقلّب صفحاته بفضول، وعندما وصلت لآخر صفحة فيه، وجدت رسما لدائرة نصفها أبيض، والنصف الآخر أسود. أين رأيتها من قبل؟ أين؟ لاحظت وجود جملة تحت الدائرة:" أيها الداخلون: اتركوا وراءكم كل أمل."
لقد قرأت هذه الجملة من قبل. أين؟ نهضت من مكاني، وتوجهت لما تبقي من مكتبتي، وأمكننى العثور على نسخة من ملحمة دانتى الجيري: الكوميديا

الإلهية. بعد تقليب بضع صفحات، أمكننى أن أصل للجملة. لقد قرأها دانتى قبل أن يلج للجحيم، في رحلته بالعالم الآخر. ما معنى هذا الكلام. ثم إننى أذكر أن رأيت هذا الرسم من قبل. أجل. رأيته على هيئة قلادة في عنق فتاة الكشك التي اشتريت منها المفكرة. هل للفتاة علاقة بالرسم؟ ارتديت ثياب الخروج، وتهيأت لمغادرة المنزل، عندما وجدت فريد يقف كالمارد:

"إلى أين؟"

قلت بغيظ:

"هل أنا سجينة؟"

"أحميك فقط."

"مما؟ من شرَ نفسي مثلًا؟"

ظهرتْ نظرة رعب في عينيه، وأدركتُ أنه ينظر بطرف عينه بعيدًا. كانت سهير تجلس باسترخاء على بعد خمسين متر تقريبا، في ضوء الشمس الدافيء. كتلة من السواد، تتعرض للنور؛ ألا يمكن أن تحترق؟

"سأشترى مفكرة جديدة."

قلتها بهدوء.

بدا كأنه يريد أن يتخذ قرارا. ثم تركني وهو يعرج. غادرتُ المنزل، وحاولت تجاهل النظرات الحارقة إياها،

وهي تسلخ ظهري. سواء أكانت من سهير أم فريد. لا يهم. وصلت للكشك، ونظرت فيه لأجد رجلًا في الخمسينات تقريبا يقلّب صفحات كتاب.
ألقيت عليه التحية:
"نهارك سعيد."
"نهارك أسعد يا آنسة."
"سبق أن اشتريت مفكرة من هنا، من فتاة تجلس مكانك."
قال بأسف:
"إنها مريضة."
"شيء مؤسف. أين يمكنني أن أجدها؟"
نظر إلي بنظرة نفاذة، وكأنه يريد التيقن من نواياي. أنا لا أعرف أصلًا لما أبحث عنها أيها الطيب. خطّ العنوان على ورقة، وهكذا توجهت يا أمي لرؤية الفتاة. لم يكن العنوان بعيدا؛ فأخذته سيرا. للحظة شعرت أن هناك من يتتبعني، ثم هززتُ رأسي، وكأنهى أنفض هذه التوهمات. ما رأيته يمكن أن يجعل الوسوسة تقيم بداخلي للأبد!
كان البيت قديما، وفي الطابق الأول رحتُ أدقُّ على الباب برفق. لحظات، وأنا أسمع خطوات قادمة ناحيتي. انفتح الباب؛ لتطلّ امرأة تضع نقابا أسود

شفافًا على وجهها. توقف تفكيري، أو تجمد، أو ربما تراجع بخوف، وأنا أتذكر هؤلاء الحمقى الذين يسمون أنفسهم "الخالدون".

"أنت؟"

أتاني صوتها من خلف النَقاب؛ فتذكرته. الصوت المرح، الذي يضج بالحياة، صار متعبا، وكأنه يحمل جبلًا فوق عاتقه.

"ماذا تريدين؟"

سألتني بصوت مشروخ.

"سمعتُ بأنك مريضة."

"غير صحيح. أنا أحتضرَ فحسب. لقد حانت ساعتي."

سرتْ قشعريرة في جسدي. فتحتْ الباب؛ فدخلتُ، وأنا أنظر حولي. مكان ذو أثاث رثّ، ورائحة كريهة تنبعث في الأجواء، ورفّ خشبي عتيق، مثبت بحبالْ للجدار، تراصت عليه كتب بدا من أغلفتها أنها فُتحت كثيرا. وكانت هناك بضع صور قديمة جدا لامرأتين متشابهتين؛ مما جعلني أخمن أنهما شقيقتان، أو قريبتان على الأقل. اللون الزيتي المميز يؤكد بأن الصورة أُخذتْ من عشرات السنين. ابتلعت ريقي، وثمة

استنتاج معين يبرز بقرنيه في جمجمتى؛ ليسبب لى
إزعاجا متواصلًا.
"إنها شقيقتي الراحلة."
قالتها، وكأنها سمعت ما أفكر فيه.
جلست قبالتي ببطء.
"من أنت؟"
هنا رفعتْ النقاب عن وجهها. ويا لهول ما رأيت!
الوجه الصبوح الذي رأيته سابقًا لم يعد هو. كان وجها
هرِما، متغضنا، غرس الزمن فيه معوله، وترك أثارا من
الصعب أن تُمحى؟
أيهما أكثر قسوة وصلابة: ندوب الروح، أم ندوب
الزمن؟
قالت بوهن:
**"منذ رأيتك، وأنا أعرف أنك مهمة. أعرف إنه تم
اختيارك من أجل شيء ما."**
قلتُ بصوت مضطرب، وأنا أكاد أقبّل يديها:
**"أرجوكِ لا تدخليني في دائرة الألغاز. يكفي ما أنا
فيه."**
ابتسمتْ أو هكذا خُيل إلي. ثم سعلتْ، وأمكننى أن
أري بقع من الدم الداكن تلطخ يديها المعروقتين.
قالت:

"ربما ضاعتْ الكثير من تفاصيل الحادثة من ذاكرتي. لكن ما أعرفه أنني لن أؤذي شقيقتي الوحيدة مهما حدثٍ. لقد خرجنا في ذلك اليوم، ونحن نحسب اليوم صفوا مبهجا. لكن الطقس قد تغير، وراحت الأمطار تهطل بغزارة، والرياح تزأر. ومما أربكنا أكثر أن الشمس احتجبت خلف سحابة داكنة، ومن ثم فقد نبت الخوف في قلبينا. سرنا كثيرا حتى ضعنا. تمزقت أحذيتنا، وأصاب حلقينا الجاف، وصرنا جائعتين، وظمآنتين. أخبرتُ أختي كثيرا أننى أكادُ أموت من العطش؛ فأخبرتني أن أصبر. كانت أقوى منى. سرنا كثيرا، وفي النهاية لم نجد مأوى إلا منزلك."

قلتُ برهبة:

"منزلي؟"

"هذه الحادثة كانت منذ ثمانين عامًا. كان منزلك عبارة عن كهف واسع، ورحب، ومخيف أيضا. لكننا لم نفكر. هرعنا إليه جريا. وهناك لمحنا نورا أزرق يأتي من الأعماق. تعلمين أن الفضول قتل القط، وفي حالتنا هذه فقد كان يدخر لنا مصيرا أكثر بشاعة. الضوء الأزرق كان قادما من نبعي ماء متجاورين. أحدهما أبيض رقراق كاللبن، والآخر معتم مخيف. كنتُ أهم بأن أشرب من الماء الرقراق، لكن أختى دفعتني بعيدا

بلهفة، وانقضت على الماء الصافي الزلال. الغريب أنها شربت كل الماء. ولم يتبق إلا الماء المعتم. في ظروف أخرى ما كان لي أن أقرب ماء كهذا. لكن العطش قاتل. وهكذا شربتُ منه شربتين بحذر."

توقفت عن السرد ريثما تسترد أنفاسها. أشفقتُ عليه. ما زلتُ لا أصدق أن شبابها انخرم في فترة قصيرة كهذه! شيء مرعب فعلًا!

"بدأت التغيرات الغريبة في نفس الليلة. بدأتْ ظلمة تكسو بشرة شقيقتي، ثم راحت تشهق حتى خلتُ بأن روحها ستغادر جسدها في تلك اللحظة. ثم مدّت يديها إلى، وهي تقول بصوت متحشرج" أنقذيني." في نفس اللحظة انفتح شقٍ في الجدار، وجذبها بقوة إليه. في تلك اللحظة تحديداً أمكنني أن أري جسدها الأبيض يتحول لما يشبه طيفاً أسود. ذو عينين حمراوين. هذا الطيف انتزع نفسه من جسدها، وحلّق في سماء الكهف ثم اختفي".

اعتدلتُ في جسدي. قلتُ بتوتر:

"إنه مطابق للطيف الذى رأيته من قبل."

قالت:

"الكهف- أو منزلك- لديه خاصية غريبة وهي الاحتفاظ بلحظات معَينة. أطياف تتكرر ناتجة عن

حوادث سابقة فيه، وخاصة تلك التي تحدث عند الانفعال الشديد، مثل الإشراف على الموت، أو الخوف الشديد، أو البكاء!"

الآن فهمت. هذا يفسر الإشاعات الخاصة بالمنزل. إنه يحتفظ بأشباح الحوادث، ثم يعيد تكرارها طوال الأعوام!

الأشباح حقيقية إذن، بشكل أو بآخر!

أكملت الفتاة التي تعد كذلك:

"طبعًا بكيتُ، وصرختُ، وضربتُ الجدار بكفي حتى أدميتُه. لكن بدأتُ أنتبه أن جروحي بدأت تلتئم. خمنتُ أنها صدفة، ثم قمت بجرح كفي عن عمد، وبعد قليل بدأ الجرح يلتئم من جديد. أدركتُ- بمرور الوقت، وعبر حوادث مختلفة- أنني وصلتُ لنبع الشباب الطويل. ومع الشباب بدأت تأتي المعرفة."

"المعرفة؟"

قالت بحماس واهن يتناسب مع عمرها الطويل:

"تخيلي عندما يغدو العقل حادًا، يفكر في كل الاحتمالات، ويوازن بين ما يمكن أن يحدث أو لا، ويحدد نسبة لكل احتمال، مع المعطيات الورادة. شيء مدهش. شيء لا يمكن وصفه حتى تعايشينه بنفسك."

وأشارت لحقيبتي بإصبع واهن:
"وهذا ما أدعوك لأن تجربيه."
سألتَها:
"ماذا تقصدين؟"
"الكِتاب القابع في حقيبتك الآن. أشعر به."
ارتجفت على الرغم مني يا أمي. إنها تعلم بوجود الكتاب الذى أخذته من حاتم من قبل.
"إنه كتاب مختلف. أوراقِه مختلفة. حتى رائحة الورق. هذا لأنه ليس كتابا. صحيح أنه من ورق، وصحيح أنكِ لو أشعلتِ فيه النار سيحترق، لكنه ليس كِتابًا."
قلتُ بحذر:
"وما هو؟"
"إنه الطريق الأوحد لكي تصيري مثلي، وتخلصيني من بؤسي."
وانفجرت في البكاء:
"عندما بدأ جسدي ينهار عرفتُ أنها ماتت في ذلك المكان الذى جلبها بعيدا. شقيقتي الصغرى الحمقاء الأنانية لم تعد على قيد الحياة، ومن ثم فقد انفصم ما بيننا."
قلت برفق:

"أتبكين على فراقها، أم على ضياع شبابك؟"
قالت بحزن:
"لقد نقبتُ في المراجع والمصادر عن تاريخ الكهف القديم، وصنعتُ هذا الكتاب الراقد في حقيبتك، وفعلت من فعلته من أجلها. لكن لا شيء يهم بعد الآن. كل شيء انتهى."
ثم برقت عيناها الكليلتان بالأمل:
"لكن هذا من الممكن ألا يضيع في حالة واحدة."
"وما هي؟"
"كوني سيدة النور، حتى أرحل بسلام!"

***

"لم أفهم."
لفظتُ بها بشفتين مرتجفتين.
"سيدة النور مجرد طاقة، يمكن نقلها من شخص لآخر."
لم أنطلق بكلمة. حدّقتُ إلى وجهها، وأنا أحاول أن أستوعب ما تقوله. أردفت:
"لم يعد لي رغبة في العيش بعد الآن. معنى أن الهرِم راح يهدم جسدي أن شقيقتي قد ماتت بالفعل، وانكسرت الرابطة التي بيننا."

"ما تطلبينه مني هو الجنون بعينه!"
"تخيلي حجم الخير الذي يمكن أن تفعليه. الفارق الذي يمكن أن تصنعيه. أن تساعدي الناس بمعرفتك على بلوغ السعادة المفقودة. أن تُرممي قلوبهم الجريحة."
حاولتُ البحث عن كلمة تعبر عما يجوّل في صدري. لكن فجأة انفتح الباب بقوة، ووثب فريد للداخل!
صرخت فيه:
"هل أنت مجنون؟"
لم تتحرك العجوز من مكانها. دخلت سهير وهي تبتسم.
"إذن فهي من تُسمي نفسها سيدة النور!"
لم يطرف لها رمش، وهي تجيب:
"لم أعد كذلك."
"من المثير أن تقف سيدة الظلام أمام سيدة النور. لم أكن أظنك بهذا الضعف."
قالت سيدة النوَر فيما بدا لي أنه شفقة:
"على من تضحكين؟ أتظنين أن خدعة سيدة الظلام هذه ستنطلي على أحد؟"
"أنا سيدة الظلام. وبحركة من أصابعي يمكن أن أكسر رقبتك."

ضحكتْ العجوز. صحيح أن صوتها كان مشروخًا مرهقًا، إلا أنه بدا لي أشبه بقهقهة الرعد في الأفق:

"ستفعلين يا عزيزتي. ستفعلين. لكن ليس بفضلكِ. لكن بفضل من أعطاك هذه القدرات."

قلت بغيرَ فهم:

"ماذا تعنين بأنها ليست سيدة الظلام؟"

"كل شيء يحدث بسبب سيدها، والذى يدعي "الطيف الأزرق.""

قالت سهير:

"الطيف الأزرق هو الوحيد الذى يملك أوراق اللعبة."

"يا لكِ من حمقاء! أنت لا تدركين أنك مجرد بيدق في رقعة شطرنجه."

هنا فرقعتْ سهير بأصابعها؛ فانفجر جسد العجوز، وصار أشلاء من الدم والعظم واللحم تناثرت في أرجاء الغرفة!

***

1 يناير 2016

عزيزتي سهام...

يبدو أننى سعيد الحظ لأنني قضيتُ أولي لحظات العام الجديد معك. نعم. أمكننى أن أسمع أصوات الصخب المكتومة، القادمة من منازل الجيران، لكنى لم أهتم إلا بوقع خطواتك على الأرض الصخرية. كان ممرا قديماً يمتد لثلاثة أمتارَ، ثم ينتهى بباب آخر ذي لون أزرق. اقتربت منى، وهمست:

"هل تطرِق الباب؟"

قلت لكِ:

"لو فعلنا؛ فهل يَفتح لنا؟"

هززت رأسك:

"بدلًا من الأسئلةِ الحائرَة؛ فلنجَرب بشكل عملى."

طرقنا الباب معا، وأمكننى- على ضوء مصباحي هاتفينا المحمولين- أن أرى الباب ينزلق للداخل. من المثيرِ للغيظ أن كل هذا موجود أسفل المنزل الذى عشتُ فيه لأسابيع طويلة، دون أن أكلّف نفسى عناء البحث، ومعرفة أبعاد المكان الذى أقيم فيه!

أول ما أغشي عينينا كان هو الضوء الأزرق الرقراق، وكأنه ماء ينسكب في الهواء. أخذنا دقائق حتى خرجنا من مصيدة الانبهار. ضوء المصباحين بدا باهت بالمقارنة

بما نسبح فيه، وكأن ذرات الذوء الأزرق تتخلل الهواء ذاته، تتسرب لرئتينا في ذات الوقت.
أطفأنا المصباحين، وبعد دقيقة أو دقيقتين تقريبا أمكننا أن نميز الطيف الجالس خلف منضدةٍ عالية، على كرسي أكثر علوا، وكأنه ملك ما، يقبع حبيسا في قبو.
"انتظرتُ طويلًا هذه اللحظة."
قالها بصوت عميق، مشروخٍ. الصوت أثار رجفتي يا سهام. ولابد أنه أثار رجفتك أيضا؛ فقد ارتعدت عضلاتٍ وجهك الجميل، وانعقادة حاجبيك للحظة، وكأن سؤالًا ما راح ينبت بداخلك، ولم تتفوهي به قط.
"من أنت، وماذا تفعل تحت منزلي؟"
"أنا الطيف الأزرق. كما ترى كل شيء يؤكد هويتي، لكنه- في ذات الوقت لا يؤكد شيئا. إنها مفارقة، أو Paradox، كما يقول أخوتنا الفيزيائيين."
"منذ متى وأنتِ هنا؟"
سألته، وأنا أحاول اختراق الحجب ببصرى لرؤية ملامحه، لكن باءت محاولاتي المتكررة بالفشل. ذلك الضوء الأزرق كان قويا جدا. أراهن أنك كنت تفعلين المثل.
"منذ عشرات السنين وأنا هنا. أنتظر."
سألته بحذر:

"تنتظر ماذا؟"
أشار لمرآة مستندة إلى الجدار، ذات إطار أزرقٍ داكن كما هو متوقع. وكان ثمة ضبابٍ يميل للأزرق أيضا على سطحها. متميع، يكاد يبين شيئا، لكن لم أستطع إمساك تفاصيلة واحدة. نهض، واقترب منا، وإن ظلت ماهيته كطيف ثابتة. لمس الإطار بأصابعه؛ فتموج كشاشة التلفاز الذى تشتعل فجأة، وأظهر امرأة عجوز، متهدمة تجلس بسكون، وهي تتحدث إلى فتاة لم يظهر لنا وجهها. كانت تتكلم، ولم يكن يصلنا شيء من الكلام. فيديو صامت، مثير للتساؤلات.
سألته أنت بفضول:
"من هَذه؟"
"سيدة النور. أو من كانت سيدة النور، قبل أن تنتقل الشعلة لشخص جديد."
أشرت للفتاة:
"هذه الفتاة؟"
"اسمها مريم."
لم أعرف إن كانت هذه إجابة منه، أم ماذا. أكمل الطيف:
"توشك حياتها أن تتغير. لا تدرك أنه لا مفّر من المحتوم. وأنها لن تهرب من حقيقتها."

قلتُ مفكراَ:
"هذا الاسم سمعته من قبل."
ثم أشرق وجهي، لو جاز له أن يشرق في جوّ يغرق في الأزرق:
"أجل. قرأتُ اسمها عندما كنت في تلك الزنزانة."
قلت بدهشة:
"أية زنزانة؟"
قلت موضحا:
"لقد اختطفتنا جماعة مخبولة، ووضعتنا في زنزانة. هذا قبل أن يتدخل طرف آخر لإنقاذنا منها."
بدت دهشة غير مستوعبة ما أقوله؛ فأردفتُ بحرج:
"سأحكي لكِ القصة فيما بعد. إنها قصة طريفة."
"أراهنَ على ذلك."
أشرتُ للفتاة الظاهرة في المرآة:
"المهم أن هذه الفتاة سمعتُ اسمها من قبل."
المفارقة هنا أننى أرى مشهد مجسدا على مرآة، ولم أفقد وعيي، أو أشهق انبهارا، وكأن الحاجز الرقيق الذى يفصل بين ما هو ممكن ومستحيل قد تلاشي كلية!
قال الطيف الأزرق:
"أنت لا تعرف إن حياتك ستتقاطع مع هذه الفتاة."
ظننته يتحدث عنكِ. قلتُ بصوت مضطرب:

"أي فتاة تقصد؟"

لم يجب. فقد أشار لباب آخر ينتظر في الخلف.

سألته أنت:

"هل تريد منا الدخول مَن هذا الباب؟"

أومأ برأسه. قلت بخوف:

"لا تفعل يا حسام. فنحن لا نعرف ما الذى ينتظرنا هناك."

قال الطيف:

"بل تعرفين. اتركا نفسكيما للحقيقة؛ فهي الوحيدة القادرة على تحريركما."

أمسكتُ بيدك البضّة الطرية، لأول مرة منذ عرفتك. ملمس يدك جعلني أرتجف. جذبتك ناحية الباب الذى دخلنا منه. لعبة الجنون هذه لن أستمر فيها، ولن أعرض حياتك للخطر من أجل الفضول الذى يعتريني، والذى يحفزك أيضا. بقية من عقل تجعلني أتراجع. هل هو الجبن؟ الخوف عليك؟ أيا كان السبب. لا يهم. لكن الباب أغلق فجأة! حاولتُ فتحه دون جدوى. ثم سمعنا هذه الزمجرة المخيفة. كان هناك ذئب، ذو عينين حمراوين، يرمقنا في ركن الحجرة بشراسة. ثم راح يقترب منا ببطء.

"هل هذا ذئب؟"

سألتنِي، وأنتِ تتشبثين بذراعي بقوة.
قلتُ لكِ:
"لا يوجد أمامنا سوىَ الباب الآخر."
نظرتُ للطيف، وقلتُ بغيظ:
"أنت تدفعنا لهذا. أليس كذلك؟"
ابتسم، ثم تلاشي.. كالطيف!
***

7 نوفمبر 1934

أمى الحبيبة...
صارتْ جلستى المفضلة هي تأمل وجه أخى. بدأ يستعيد عافيَته ببطء. لا أعرف ما الذى أصابه. ما زلتُ أتذكر كل قطعة من جسد العجوز عندما تناثرتْ على جسدِي. لم أصرخ. لم أتراجع بخوف للخلف. فقط تجمدتُ كمن غادرت روحه جسده، وعاد للتراب الذى خلق منه.
سهير لم تعد تنكر أنها تابعة للطيف الأزرق. لكنها لم تخبرنى من الهدف من كل هذا. ما الغرض من كل هذا

الرَكام من الأسرار، والتفاصيل المخبأة في العتمة، والحقائق المبتورة بحق؟

هل من شيء يستحق كل هذا؟

لا أعرف. المهم أن أخي بخير. عندما رمِشتْ عيناه وضعت الكتاب جانبا. ابتسمت:

"لقد أقلقتني عليك يا محمد."

قال بصوت واهن:

"أين أنا؟"

"أنت في سريرك. اطمئن. الطبيب أكدّ أنك بخير."

تأمل وجهي للحظات، ثم قال بصوت مبحوح خائف:

"لقد تذكرتُ."

"تذكرتَ ماذا؟"

حاول أن يعتدل؛ فنهضت بسرعة لأساعده. لكنه أزاح يدي بخشونة. رمقني بنظرة من لهب، وهو يكرر:

"لقد تذكرتُ يا مريم."

جلست، وقلت بضيق:

"وما الذى تذكرته؟"

"حِقيقتك."

قلتُ مداعبة:

"اترك نفسك للحقيقة. فهي الوحيدة القادرة على تحريرك يا أخي."

تجاهل جملتي. لا يكاد يرمش. هناك توتر على وجهه. أنفاس صدره تعلو وتهبط بانفعال. الأمر جدٌ لا هزل فيه إذن.

"أخبرني بالذي رأيته."

"تذكرتُ ليلة وفاة أمي."

تمتمتُ، وقد شعرتُ بطعنة في قلبي:

"أنت محظوظ إذن. أنا لا أتذكر منها إلا القليل جدًا. كأنها مسحت من عقلي. أخبرني أبي من قبل أنها طريقة العقل في حمايتي من الألم."

تجاهل كلامي للمرة الثانية، أو هو ربما لم يفهمه. لا تنسي أنه في العاشرة، واقترب من إكمال الحادية عشر بعد شهور قليلة.

قال:

"كنت أسير بالممر بالقرب من حجرة أمي. سمعتُ صوتًا أشبه بالزمجرة. حاولتُ دفع الباب، لكنه كان مغلقًا من الداخل. أتيتُ بمقعد صغير واعتليته، ونظرتُ من الثقب."

قلتُ بحلق جاف من الإنفعال:

"وماذا رأيت؟"

"رأيتك."

"أنا؟"

"كنت تجثمين على جسد أمي الراقدة على السرير. كانت هناك هالة زرقاء حول جسدك، وكانت عيناكِ حمراوين. كنت تخنقينها."

وانفجر في البكاء، صارخاً بهستيريا:

"أنت من قتل أمي."

ورماني بالوسادة، والدموع تخنق وجهه:

"أنتِ من قتلها. أيتها القاتلة، متحجرة القلب!"

***

تسألينني عن حالتي يا أمي؟ هذا ليس سؤالًا، ولا يصح طرحه. أنت بالذات لا يمكنك أن تطرحي علي هذا السؤال المؤلم. أنا قتلتك؟ كنت مذهولة طبعاً، أغرق في نوبة من البكاء الحاد الهستيري بحجرتي، وأنفاسي تخرج من صدري بصعوبة، وخلت نفسي ستغادر جسدي بالفعل، وكانت أمنية ملحة لي أن أعود للتراب. أن تتكون حفرة كونية عملاقة تتكون في الفراغ، وتبتلعني للأبد.

أهذا هو سبب بعد أخي عني؟ أهذا هو سبب عدم"استلطافه" لي، وقبولي كشقيقة كبرى تحبه، وتخاف عليه؟

عقلي مسح هذه الذكرى؛ ليحميني، لكن بقت هذه الغصة المؤلمة الحريفة بأن ثمة شيء ما حدث.
دخلت علي هند، وأخذتني في حضنها.
"ما الذى حدث؟"
صوتها الحنون يهدىء انفعالاتي البركانية. حكيتُ لها ما حدث. الحقيقة أنها صدمت. لكنها لم تنبس بكلمة.
قلتُ فجأة، وأنا أرفع رأسي مبتعدة عنها:
"هيا بنا."
"إلى أين؟"
"إلى منزلي القديم. لابد أن أعرف ما الذى حدث هناك."

***

1 يناير 2016

عزيزتي سهام...
في الحجرة التالية من القبو كان ينتظرنا الطيف الأزرق. هذه المرة يجلس خلف منصة تشبه منصات القضاء. وكان هناك مقعدان ينتظرانا.

"اجلسا."
أشار إلينا بالجلوس. جلسنا. كما ترين فإن هذا أشبه بالحلم. وكنتُ أتمنى أن يدوم هذا الحلم بصحبتكِ للأبد.
"الآن. أخبراني بأكثر أسراركما حلكة وغموضًا."
كان الذئب يقف في الركن، يتأهب لغرس أنيابه في عنقينا. كان مرآه مخيفًا، وكان يدفع الخوف في عروقي. لا شك أنكِ كنتِ خائفة أيضًا. ما زلتِ متشبثة بذراعي؛ مما أسعدني.
قلت بعصبية:
"لا توجَد أسرار لديّ."
قال ببطء:
"أنت كاذبة."
هنا اقترب الذئب أكثرَ منا. أدركتُ أنه أشبه بجهاز كشف الكذب. هل يمكنٍ مراوغة ذئب كهذا؟ لا أظن.
أخذت نفسا عميقًا، وقلتِ:
"تفضل. ابدأ أنت."
قلتُ لك بأدبٍ:
"السيداتَ أولًا."

نظرت إلىَّ بغيظ. خُيِّل إلىَّ أن الطيف الأزرق يبتسم بتشفٍّ. لابد أنه مستمتع بالموقف السخيف الذى وضعنا فيه فضولنا.

"حسنًا، لو كنت تُصر. من أسرارى أننى أنام دومًا مرتدية جواربي. لا أحب النوم إلا في الظلام. أكره الصخب، برغم أننى أعيش فيه نهارًا في العمل."

قال الطيف ببرود:

"كُفِّى عن هراءك هذا."

اقترب الذئب أكثر منا. همستُ في أذنك:

"هذا الطيف لا يمزح. كونى صادقة."

قلت بضيق:

"طبعًا. أنت لستَ في مَكاني؛ فمن السهل عليكَ أن تقول هذا."

قلت بسرعة:

"سأكونُ مكانك فور أن تنتهي. كلما كنا صادقين خرجنا من هذا الموقف السخيف بسرعة."

بدا أن منطقي قد أقنعك.

"هذا الحلم."

قال الطيف:

"أي حلم؟"

قلت بشرود:

"كنتُ صغيرة. في الثامنة تقريباً. وكنتُ في المقعد الخلفي في سيارة والدي، والتي كان ينطلق بها بسرعة كبيرة. فجأة رأيتُ كلباً أو ذئباً يندفع نحو الطريق؛ فصرختُ:"أبي. احذر من هذا الكلب." كانت الصرخة حادة، أتتْ فجأة وسط موجة صمت. وحدث كل شيءٍ مرة واحدة دون مقدمات. السيارة مقلوبة، الدماء تنز من جسديهما. أمى تُربتْ على كتفى بوجه صاحب علته صفرة الموت، وهي تقول:" اطمئني. كل شيء سيكون على ما يرام."

وانفجرت في البكاء، مكملة:

"لكن لم يكن كلَ شيء على ما يرام. منذ لتك اللحظة، وقد تغير كل شيء. لم أكن أعرف هذه القصة من قبل. هذا الجرح الذى يدمى بداخلك، ولا أراه. شعرتُ بالخجل من نفسي. قلت من بين دموعك: "لقد خسرتهم بسببي. أنا من َقتلتهم. وليس هَذا الكلب."

قال الطيف، مشيراً للذئب:

"أو الذئب."

بدتْ البلاهة على وجهك.

"ماذا تِعنى؟"

التفت إلى:

"وأنت؟ ماذا عن سرك الحالك المظلم؟"
خطر لي أن أستغل الفرصة وأعترف أننى أحبك.
الحقيقة أن الفرصة مواتية تماما. لكنه- لم يكن أكثر أسرارى ظلمة. فيبدو أن العالم يعرف بحبي لك إلاك.
ثم هي فرصة لكي أحول تفكيرك عن موجةَ الأسىَ والحزن التي غمرتك بسبب تذكركَ ذلك الحادث الأليم.
أخذت نفسَا]ا عميقا بدوَري، وقلت:
"أنا أُحتضر."
صرخت:
"ماذا؟"
أشرتُ لرأسي:
"هذا الألم الكاسح كان يزورنى على فترات. ثم قمتُ بالكشف؛ لأجد أنه سرطان في مرحلة متأخرة."
قال الطيف الأزرق:
"كم أمامك؟"
قلتُ بنبرة مرتجفة، وأنا ألمح دموعك تتساقط:
"أسابيع قليلة."
قلت:
" لقد خسرتُ عائلتي من َقبل، وخسرتُ طفولتي، وخسرتُ طارق، وها أنا ذا أخسرك."
ارتجف قلبي، وأنا أقول:

"طارق؟ ما الأمر؟"
"لقد تشاجرنا. إنه يزعم أننى لا أحبه."
قال الطيف، متدخلًا في الحوار كغراب البين:
"وهل أنت كذلك؟"
قلت بصوت منخفَض، وأنت تنهنهين:
"لا أعلم. لم أعد أعلم أيَ شيء."
قال الطيف:
"وهل هو يحبك؟"
قلت بحزن:
"أنا واثقةٌ من حبه لي."
ثم التفت إلى، وقلت:
"ألا يوجد علاج؟"
قلتُ بصوت مختنق:
"لا."
ثم ضحكتُ فجأة. سألنى الطيف:
"علام تضحك؟"
"Paradox مِن جديد. في الوقت الذى صار الطريق خاليا أمامى لم يعد أمامي وقت."
قلت:
"ماذا تعَنى؟"
قال الطيف برفق:



"يعني أنه يحبك."
قلت هامسةً:
"أعلم هذا."
قلت بعصبية:
"تعلمين."
"أعلم."
"ولماذا لم تخبريني؟"
"شخص لا يجرؤ على التصريح بحبه للفتاة التي يحبها، هو شخص لن يجرؤ على أي شيء آخر."
قلت بعصبية:
". اطمئني إذن؛ فسأرحل للأبد."
صرخت في وجهي:
"وهل هذا سيسعدني؟"
في تلك اللحظة، انفتح باب آخر وراء الطيف، الذى تلاشي أثناء جدالي معك. ومن خلال الباب المفتوح، أمكنني أن أرى تلك الفتاة ذات الملامح الضبابية، المقيدة إلى كرسي أسود عتيق!
***

8 نوفمبر 1934

أمى الحبيبة...

كان المنزل ينتظرني. ولجتُ للداخل برهبة، وأنا أتشبث بذراع هند. همست في أذني:

"ألم تزوريه ولو لمرة واحدة منذ رحيلك عنه."

"لم أفعل."

"ولم؟"

"أكره الأسئلة الغبية يا هند."

قالت بضيق:

"أرى أنك صرت أكثر حدة وعصبية."

صدّقتُ عليَ قولها، وأنا أُدمدم:

"وهل ترين ما مررت به طبيعيا؟ فقدتُ أمي، ثم أبي، ومن بعدهما أخي الذى يعاملني بغلظة، والذى تبين أنه رآني أقتل أمي، ثم حادثة العجوز الذى انفجرت أمامي كبالونة، والآن أعود للمكان الذى شهد فقدانها. ماذا تتوقعين منى؟"

تمتمت:

"أنت على حق."

"مَرييييم!"

صوت المرأة الطيبة يصكّ أذنيّ. كانت علية هي طباخة المنزل، ومدبرته، وصديقة أمى. قبلتني:

"أيتها الجاحدة؟"

قلتُ معتذرة:

"مشاغل الحياة."

ضربتنى في كتفى برفق:

"وهل هناك ما يشغلك عنى؟"

كدتُ أقول"نعم"، ثم اكتفيت بابتسامة هادئة، لا تعبر أبدًا عما يمور بداخلي. بعد الشراب الساخن، وبعض الأسئلة بخصوص أولادها، سألتها:

"أخبريني بصدق: هل أبي هو أبي؟"

تجمدت ابتسامتها. ثم قالت بارتباك:

"عرفتِ الحقيقة إذن!"

قالت هند بذهول:

"هل هذا صحيح؟"

قالت علية بسرعة:

"لقد نصحتُ أبوك بأن يخبرك بالحقيقة. لكنه لم يفعل للأسف."

"من أين أتيتُ، ومن هما أبوي الحقيقيين؟"

فردت كفيها بحيرة:

"علمي علمك."

ثم اعتدلتْ في جلستها:
"لكنني أتذكر جيداً الليلة التي أتيتما فيها."
قلت بحذر:
"أتينا؟ من تقصدين؟"
أشارت للأفق:
"ثمة ضوء أزرق مبهر في الأفق، انفصل منه ظلان أو طيفان، وبينما اختفى أحدهما، اتجه الآخر للمنزل. كان أبوك وأمك يرقبان الأفق من النافذة المفتوحة، ولا يصدقانَ أن هذا الطيف يأتي نحوهما بسرعة شديدة. ثم دوت فرقعة، وعندما خرجنا جميعا من المنزل وجدناك ملقاة أرضًا، وعيناك حمراوين، وأنت ترتجفين مثل كتكوت مبتل في ليلة قارصة البرودة."
في تلك اللحظة يا أمي، حدث شيئان:
الأول: أنني شعرتُ بأنني مبتورة الجذور.
والثاني: تذكرتُ كلام حاتم عن الضوء الأزرق الذى انفصل عنه طيفان. لقد كان يتحدث عني!
"كان أبواك يشعران بألم بالغ لفقدانهما ابنتهما مريم منذ عدة أعوام. فتاة غضة ماتت في حادثة، وقد كسرهما الألم. وفجأةً يجدانك أمامهما. لقد اعتبراكِ تعويضًا جاء في وقته."
"لهذا أطلقا على اسم مريم؟"

"أجل."

قالت هند بحيرة، وهي توّجه كلامها لي:

"لكن كيف لا تتذكرين ما حدث؟"

قالت علية:

"لا أحد يعلم. كنت مشوشة يا بنيتى. تترنحين من الصدمة. لا تتذ كرين شيئًا من حياتك السابقة. لكن ثمة شيء حدث، وأنت نائمة في سرير مرَيم الراحلة، وأمك تمسك بيدك. فجَأة وجدتك تهمسين:"عالم التماثيل الحَجرية. عالم التمَاثيل الحجرية."

اعتدلتُ في جلستي. لقد سمعتُ هذا الاسم من قبل.

قالت هند، وهي تنظر إلى:

"أليس هذا ما قاله ذلك المخبول فريد عن سيدة الظلام، ومدينة إلتماثيل الحجرية."

قلت بغيظ:

"هذا الهراء آمنت به لفترة، وكدت تلتحقين بهم."

قالت هند بارتباك:

"كنتُ حمقاء."

قلتُ، وأنا أجول ببصرى في وجهها:

"لقد غيرتِ رأيك لسبب ما لم تخبريني به."

همست هند:

"دعينا من هذه النقطة الآن، ولا تأتي بسيرة فريد، وإلا وجدناه هنا الآن. دعيه بالخارج يتجمد من البرد."

هبت علية واقفة:

"معكما ضيفٍ يقف بالخارج؟"

قلتُ متنهدة:

"إنه الحارسِ الخاص بي؟"

جلست علية:

"من أي شيء يحرسك؟"

"من الأشباح فيما يبدو."

قلتها، وفي اللحظة التالية هويتُ أرضا، وأنا أرتجف بقوة، حيث كانت هناك آلاف الشموس تنفجر في عقلي، ومعها تنفجر آلاف الذكريات!

ورحتُ أتذكر من أنا، وما هي حقيقتي، ومن أين أتيت!

ويا لهول ما تذكرته!

***

1 يناير 2016

عزيزتي سهام...
قبل أن نتحرك متجهين إلى الفتاة التي بدت لنا بشكل غير واضح، حدث شيء ما غير متوقع. انفتح الباب خلفنا، وبرز منه وجهان مألوفان بالنسبة لي، وهما يلهثان . هتفت بدهشة محدقًا في وجهي شادي وفريد:
"أنتما؟"
كان شادي يلهث، أما فريد فقد بدا أنيقًا، برغم سنه المتقدمة.
"ما الذى أتى بكما إلى هنا؟"
سألتهما، متوقعا إجابة مقنعة. لكن الإجابة أتت من طرف غير متوقع. من الطيف الأزرق نفسه، والذى ظهر بغتة كموجة من الدخان. تراجع الرجلان بخوف.
قال الطيف بحبور:
"إذن تعرفان من أنا؟"
قال شادي مرتجفا:
"كل ما نريده هو الصندوق."
قلت بحيرة:
"الصندوق؟"
قال شادي بتوتر:

"أخبرتك أن كل من يسكن في هذا البيت تكون لديه معلومة عن ذلك الصندوق."
قلت بضيق:
"لقد غدوتما حليفين."
قال الطيف:
"الهدف واحد، لكن المصلحة مختلفة."
قال فريد بغلظة:
"أين الصندوق؟"
قال الطيف بنعومة:
"لماذا تريده؟"
"لتصحيح الأوضاع."
تجاهله الطيف، وقال وهو يلتفتْ لشادي:
"أتعلم ماذا فعل فريد من قبل بجدتك؟ لقد قتلها!"
هنا، أمسكتُ بيدك، وتراجعتُ للخلف، وأنا أشير إليك بالصمت. يبدو أنها تصفية حسابات قديمة، وفي مثل هذه الأمور ينبغي للمرء أن يراقب ويبتعد.
قال فريد بارتباك:
"كذّاب!"
قال الطيف ساخراً:
"استحِ يا رجل. لقد كنتُ موجوداً عندما فعلتَها."
قال شادي بعصبية:

"أنت قتلت جدتى سهير؟"
قال فريد بذعر:
"لقد كان حادثًا."
قال الطيف بسرعة، والذى راق له لعب دور الشيطان فيما يبدو:
"أنت متأكد من هذا؟ لقد قمتَ بتحطيم رأسها على الجدار كثمرة برتقال ناضجةٍ! لقد كان المشهد وحشيا! وحشيا!"
ثم شعرتُ بأن نبرة خبثٍ تسللتْ لصوته الناعم:
"لقد كنتَ مستمتعا فيما يبدو وأنت تفعلها."
الغضب على وجه شادي. التوتر العنيف على وجه فريد. كلاهما قابلته من قبل، وكلاهما كان يتحدث عن المصلحة العامة، والهدف الأكبر الذى يجب أن نسعي إليه. كل هذا تحطم في لحظة.
قال فريد بعصبية:
"لقد كانت تستحق."
ثم صرخ في وجه شادي:
"ثم لا تحاول إقناعي أنك تريد الصندوق من أجلها. أنت تفعلها من أجل نفسك."
قال شادي بهدوء:
"أنت على حق. أنا أفعلها من أجلى. مثلك."

ثم انفجر كالبركان، وهو ينقضّ عليه. رجلان ينفضان عنهما ثياب التحضر، ويتحولان لوحشين في الغابة!
تركتُ يدك، لكنك تشبثت بها بشدة. لا توجد كلمات تصف لكَ فرحةَ قلبي، وَخفقاته المتشارعة، كقطار يتحركَ بسرعة هائلة.
تركتني أخيراً، وعيناك معلقتين بي، وأنا أحاول الفصل ما بينهما، لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة أبداً؛ فقد ظهر الذئب الضخم، وهو يقف أمامي يمنعني من التدخل. فمه ينفتح مبرزاً أنيابه، والزبد الذى يتساقط من شدقيه. مع وحش كهذا يغدو التحرك مستحيلاً.
تعالى صراخ الرجلين، وألمهما، ووجهيهما يشخب بالدم، وفي النهاية تهالكا على الأرض، غارقين في دماءهما.
قلت بسرعة:
"لابد من الذهاب بهما للمستشفي."
اقترب الطيف منهما، وانحنى، ثم وجدته يدفع بيده إلى جيب فريد، ويخرج منه...
حجر النسيان!
الحجر الذى جعلني أنسي من قبل.
أغمض فريد، وقال بصوت هامس يمتلىء بالندم، وهو يوجه نظراته إليك:
"أنا آسف."



ثم شهق، مُسلِّمًا الروح. أما شادي؛ فقد خطر لي أنه قد سبقه؛ فقد همدت حركته، وصار ساكنًا كالتماثيل.
انفجرتِ في البكاء، بينما أقول بغيظ للطيف:
"أيها الوغد!"
أشار للباب المفتوح، وقال:
"لا تُضيعا الوقت. إنها الحجرة الأخيرة، حيث تنجوان، أو تهلكان!"
وابتسم:
"والخيار خياركما."

***

هنا سمعنا هذا الصوت المكتوم، ينادي:
"حسام! سهام!"
قلتِ، وأنت تمسكين يدي؛ لسبب مختلف هذه المرة:
"إنه طارق! ما الذى أتى به إلى هنا؟"
قلتُ لك بضيق:
"نفس سؤالي."
ثم قلتُ بغلظة على الرغم منى:
"ما هي مشكلتك بالضبط معه؟"
قبل أن تنطق بكلمة، دخل طارق الحجرة بحذر، وهو ينظر حوله. توقف مبهوتًا أمام ما رآه: جسدان

مُسجّيان أرضًا، ذئب ضخم يزوم لكي ينشب أنيابه في عنق من يستفزه، وطيف أزرق غامض يبدو أنه مستمتع جدًا بما يحدث، وفتاة مقيدة بالسلاسل تبدو لنا في حجرة أخرى، ذات باب مفتوح!

قال طارق بلهجة مضطربة:

"ماذا يحدث بالضبط؟"

قلتُ بسخرية:

"يبدو أن منزلى صار مفتوحا لكل من يريد التجوال فيه."

أمسكتني من يدي. ويبدو أن هذه الحركة لم تفلتْ من ملاحظة حبيبك.

قال طارق بعصبيَة:

"ماذا تفعلان هنا؟"

سألته برفق:

"ما الذى أتىَ بك يا طارق؟"

قال بضيق:

"ذهبتُ إليك في المنزل للاحتفال معك بليلة رأس العام. لكنى لم أجدك. أخبرني والدك أنك أتيتِ إلى هنا، وكان يشعر بالحزن الشديدَ."

قلتِ بعصبية:



"أجل. لقد طلب منى عدم الخروج، والاحتفال معه، لكنى لم أطق المكوث بالمنزل. وهو رجل مسنّ، ولا يقدر على الخروج. لقد راح يحتضننى ويقبلني وهو يبكي. كان تصرفه في غاية الغرابة."

قلت مشفقًا:

"إنه يحبك مثل ابنته."

قلت، وأنت تتنهدين:

"أعلم. لكن أحيانًا أشعَر أننى غير جديرة بهذا الحب."

قال الطيف الأزرق، وهو يستعيد دوره كغراب بين عتيد:

"أرى أن نؤجل هذا النقاش العائلى الحميم، ونهتم بالضروريات."

قال طارق مرتجفًا:

"من هذا؟"

قلت له:

"إنه طيف أزرق كما ترى. أما منْ هو، وما حقيقته فعلمي علمك."

هتف طارق:

"أرى أن نخرج بسرعة."

فرقع الطيف بأصابعه؛ فانغلق الباب بعنف.

"لا يوجد خروج من هنا إلا عندما نحلّ المعضلة الأخيرة. يقال بأن الاختيار هو ما يصنع ماهيتنا، وليس ما نملك من قدرات."

قلت بغيظ:

"يبدو أنك من هواة هاري بوتر!"

ضحك الطيف؛ فلمعت الهالة الزرقاء المحيطة به بشدة. ثم تقدم ناحية الحجرة المفتوحة؛ لنقترب أكثر من الفتاة المقيدة، والتي هتفت بغلّ فور أن رأت الطيف:

"أنت!"

قال بهدوء:

"أنا."

كانت الحجرة واسعة جدًا، وكانت ذات تهوية لا بأس بها، وهذا من حسن حظنا. كان هناك صندوق كبير في الركن، مفتوح على مصراعيه، وقد اقترب منه الطيف، ووضع حجر النسيان فيه. الفتاة كانت في حالة يرثي لها؛ فبرغم نظرات المقت المندلعة من عينيها كاللهب نحو الطيف، إلا أن جسدها كان نحيفًا، جلد على عظم، وكانت هناك جروح عميقةٍ تصدر منها رائحة كريهة جدًا.

مددتُ يدي نحو الفتاة؛ إلا أن الطيف صرخ:

"إياك!"

الذئب يقف مرة أخرى بيني وبين الفتاة، وهو يزوم بوحشية جعلتني أتراجع بضيق.

قال الطيف:

"هذه الفِتاة تُدعِي بسّمة. لقد كانت هنا منذ عام تقريبا، وبدأت تدسٍ أنفها فيما لا يعنيها."

قلت بدهشة:

"أنت حفيدة حاتم؟"

لمعت عَيناها بفرحة. قلتُ:

"جدك يكاد يجن من الخوف عليك."

أشرت للحجرة، وقلت برهبة:

"هل ظللتَ طوال هذا العامَ محبوسة هنا؟"

قال الطيفَ مقاطعا حديثنا، وهو ينظر إلي:

"والآن يا صديقي العزيز دعنى أفعل كما فعل العجوز حاتم من قبل، وأمنحك خيارين لا ثالث لهما: إما أن تقوم بقتل هذه الفتاة المسكينة بخنجر جدها الذى انتزعته أختك من يده من قبل."

وأشار الطيف لسكين حاتم الشبيه بسيف قصير، والمستقر على منضة حجرية صغيرة، وبجواره قارورة صغيرة، ملأى بسائل يميل للسواد، ثم أكمل:

"لو فعلتّ هذا سوف تخرج أنت وحبيبتك سهام من هنا بسلام، ومعك هذه القارورة التي ستعالج السرطان الذى يرتع في جسدك كالكابوس."

صرخ طارق منفعلًا:

"حبيبته؟ لقد كنتُ أعرف هذا من البداية! أجل، كنتُ أعرف."

قال الطيف بصرامة:

"تنح جانبًا يا أحمق؛ فلم يأت دورك بعد."

هنا تحرك الذئب ناحية الشاب، الذى كان يرتعد من الخوف والغيرة.

قلتُ بضيق:

"ما هذا الجنون الذى تتفوه به؟"

قال بسرعة:

"ليس جنونًا. هذه القارورة ملآنة بسائل مدهش، هو اكسير الشباب. هذا لا يعني أنك ستعيش، أو ستكون شابًا للأبد؛ فهذا السائل مخفف بماء، لكنه سيقضي على سرطانك بلا رجعة."

قلتُ:

"ليس هذا ما قصدته. طيف تطلب منى قتل هذه المسكينة؟"

هز كتفيه:

"هذه المسكينة في حكم الميتة بالفعل. هذه الجروح ستقضي عليها الليلة أو غدا على الأكثر، ولن تفيد كل أساليب الطب في العالم في إنقاذها."
قلت بغلظة:
"إلى بالخيار الثاني."
"آه. الخيار الثاني أن تدلف حبيبتك إلى هذا الصندوق، ودون نقاش، ودون أن تسأل لماذا، وفي هذه الحالة ستنجو أنت والفتاة."
قلت بصوت منخفض:
"في كلتا الحالتين سأخسر."
قال الطيف:
"لا أحد يأخذ كل شيء."
قلت:
"في الحالة الأولى سأشفى نعم، وأكسب صحتي مجددا، لكن سأخسر آدميتي، وسأغدو قاتلا. وفي الحالة الثانية سأخسر حبيبتي، وأكسب صحتي والفتاة."
قال الطيف:
"هو ذاك."
"آسف. لن أقدر على اختيار أحدهما."
"إذن ستموتون جميعا."



قلت فجأة، وأنت تلتفتين إلى طارق:

"ثمة حاجز بَينى وبينك يَا طارق. حاجز سخيف من الظلمة. أنت تحبني بالفعل، لكنك تحب نفسك أكثر. تريد أن تكسب كل شيء. ربما هذا هو الفارق الأكبر بينكُ وبينه."

قلتُ برهبة:

"هل تقارنينه بي يا سهام؟"

قلت برفق، وأنت تبتسمين بحزن:

" لا يعني هذا أنى أفضلكَ عليه يا حسام. لقد خسرتَ فرصتك معي."

وفى اللحظة التالية وجدتك تتحركين بسرعة، نحو الصندوق، وتثبين فيه.

صرخت بفزع:

"لا!!"

هنا، بدأ ضوء أزرق يلمع، وقبل أن أتحرك، وثب طارق نحو الصندوق، لينفجر شيء ما، أزرق مبهر، وعندما عادتْ الظلمة، أدركتُ أن الحجرة خالية منكِ، ومن طارق، ومن الصندوق!

جثوتُ على ركبتي، وأنا أهتف بصوت مختنق:

"أين ذهبتٍ؟"

قال الطيف مبتسماً:

"ذهبتْ لتكمل حياتها في زمن آخر. زمن يُقدّر بثمانين عاما في الماضي!"

***

8 نوفمبر 1934

أمي الحبيبة...

عندما خرجتُ لهذا العالم، من رحم الصندوق المهشم لأشلاء، كان وجهكِ هو أول ما رأيته. صحيح أني أبي كان ينظر حوله مبهوتا حائرا من ذرات الضوء الأزرق التي علقت بالأثير، لكنك كنت لا تكترثين بهذا، وأنتِ تضعين يديكِ على وجهي قائلة في حنان:

"إنها فتاة رائعة بالجمال!"

قال أبي بعصبية:

"وعارية أيضا. هيا قبل أن يرانا أحد."

ربّتِ على كتفي، وقلت بلهجة دافئة بعثتْ الطمأنينة في أوصالي الممزَقة من عنف الرحلة:

"كل شيء سيكون على ما يرام يا بنيتى."

كان الشارع شبه خال، وأنتما تنقلاني للداخل. كنتُ متعبة جداً، وآلام هائلة تعصف بجسدى، وكانت الذكريات تتسرب من عقلي، كما يتسرب البخار من إناء محكم الإغلاق.

كل شيء عن حياتي السابقة في القرن الحادي والعشرين كان يحذف من رأسي، بدءا من اسم"سهام"، إلى أصدقائي، والرجل الذى تبناني، وطارق، وحسام، وكل هؤلاء الأعزاء الذين كانوا يشكّلون عالمي فيما مضى.

كنت في سرير حجرة ابنتك الراحلة، عندما سمعتكما تتحدثاتَ همسا:

"ماذا سنفعل بها؟"

سألك والدي، وهو يختلس إلى نظرات حذرة.

"إنها هدية إلينا يا زوجي الحبيب."

قال أبي بعصبية:

"إنها ليستْ طفلة عمرها شهران، وجدناها في قماطها على باب منزلنا. إنها فتاة بالغة، ولابد أن لها أهلًا."

قلت برفق، وعيناك تشعان بالذكاء:

"لا أظن. ألا ترى كيف أتت؟ لقد أتتْ من السماء، بطريقة خوارقية."

قال أبي بدهشة:

"خوارقية؟ لقد أفسدت الكتب عقلك."

ابتسمت بحنان:

"وماذا ستفعل عندما أجَعلها تحب الكتب مثلي."

وأردفت بحزن:

"لقد فشلتُ في أن أجعلَ مريم تحب الكتب، وقد أوردتها شقاوتها ورعونتها المهالك للأسف."

تنهد أبي:

"ما تريدين فعله؛ سيفتح علينا أبواب نحن في غني عنها."

قلت:

"لكنى لستُ في غنى عن هذه الفتاة. ستظل في بيتنا ضيفة معززة مكرمة، ولابد أننا سنعرف قصتها، ولو كان لها أهلٌ."

لكن بمرور الوقت راحت الذكرياتْ تمُسح من عقلي. غدوت أشبه بطفلة تتعلم الحبو، ثم المشى، ثم الكلام، وكنت أنت بجواري طوال هذه الخطوات.

منك بَدأتُ أتعلم قراءة الكتب، وعشقها، ومنكِ بدأتُ أستسيغ اسم "مريم"، وأتقبله. لكن شيئاً رهيَبا حدث ذات ليلة.

لقد شعرتُ بآلام لا تُطاق في جسدي. وسمعتُ صوتًا يهمس في أذني:

"لا تظني أنك بمفردك يا مريم. أنا هنا. حولكِ في الظلمة، في الأثير، أتحيَن الفرصة للظهور مجددًا. وسأفعل."

بدأتُ أغيب وسط غلالة من الأزرق، والألم، وعندما صحوتُ من غفوتي وجدتك في النزع الأخير.

كانت يداي ملتفتينَ حول عنقك!

صرختُ، وأنا أحاول نزعهما بشدة، لكنني فشلت.

الصوت يهمس في أذني مجددا:

"أنت تنتمين لعالم التماثيل الحجرية. لقد تصلبتْ يداكِ حول رقبتها. وغدا سيتصلب جسدك كله، وستصيرين ملكي. فقط استسلمي."

نظرتِ إلي يا أمي. إلى دموعي المنهمرة على وجهي، وقلتِ وأنت تمسحينها برفق:

" لا عليك يا بنيتي. أنا أسامحك من كل قلبي."

بكيتُ بحرقة، بينما تواصلان يداي الضغط بقوة.

مددت يدك، وربتّ على كتفي:

"اطمئني. كل شيء سيكون على ما يرام."

وكان آخر ما سمعته منك:

"سنتقابل ذات يوم في عالم أفضل. فإلى الملتقي."

كنتُ راقدة على الأرض، وأنا أنشج بجنون. هند تحاول تهدئتي. علية تحتضِنني. فريد يقف على الباب مستغربا ما يرى.

وفى اللحظة التالية، راح يتكون طيف أزرق أمامي.

اقترب مني برفق، وجثا على ركبتيه، وقال:

"هل تتذكرينني يا سهام؟"

قلتُ، وأنا أومىء برأسي:

"أتذكرك يا طارق. أتذكرك."

أشار لجسده الطيفى:

"أترين ما فعلته بي رحلتك للماضي، وذلك الحجر الأزرق المشئوم. لقد حولنيَ لطيف، يحوم حولك كالأشباح، ترينه مرة، وهو يموض من نافذة حجرتك، أو تشعرين به، وهو يحدق إلى ظهرك وأنتِ تزورينَ والدتِك."

تمتمت بحزن:

"لماذا فعلت هذا أيها التعس؟"

ضحك بسخرية:

"أتذكرين عندما كنا في القبو، بعد ثمانين عامًا في المستقبل، عندما نهرني الطيف الأزرق وأخبرني بأن دوري لم يأت بعد."

وتنهد:

"هذا الزمن مراوغ، ساحر، مثير للدوار!"
قلت بحزن:
"لقد خسرتُ عائلتي الأولي، وخسرتُ عائلتي هنا، وخسرتُ حسام."
قال طارق بعصبية:
"لا تذكرى اسمه أمامي."
ثم قال برفق مباغت:
"ولقد خسرتِه بالفعل؛ فهذا الصندوق هو آلة زمن في اتجاه واحد. بمعنى أنه لا توجد طريقة أصلًا للعودة للمستقبل، أو أن يأتي هو للماضي."
سالت دموعي مدرارا:
"لكنك لم تخسرني أنا."
"أنت مجرد طيف هائم. لا تختلف كثيراً عن الأشباح."
"لكن يمكن أن نجتمع سوياً في عالم التماثيل الحجرية."
قلتُ بعصبية، وأنا ألمح نظرات الفزع في أعين هند وعلية:
"عالم التماثيل الحجرية مرة أخرى؟!"
"إنه عالم عجيب. يقع في بعد آخر وراء عالمنا المنظور. يمكن للأطياف فيها أن تتقابل، وتعيش هناك.

حياة خارج حدود الزمن، كأنها حياة أبدية! فقط عليكِ أن تتحولي لطيف مثلي، ويمكننا وقتها أن نشعر ببعضنا البعض جسديا."

ثم همس في أذني:

"أنت الطيف الذى أهواه يا سهام."

وأكمل بعد لحظة صمت:

" فقط، علينا أن نجد طريقة للذهاب معًا. ومن يدري. قد تقابلين هناك بعض أحبتك الراحلين. فهذه المدينة أيضًا تحتفظ بصور هائمة من حيوات بعض البشر، وخاصة من تعرضوا للموت بطريقة بشعة. ستجدين هناك صورا لأبويكِ الراحلين."

قلت بلهفة:

"أيهما؟"

ابتسم:

"الاثنين؛ من كانوا في المستقبل، ومن كانوا معكِ هنا."

هنا قلتُ:

"لكن أبي هنا رحل بطريقة طبيعية."

قال:

"حقًا؟"

دمدمتُ بغضب هائل، يحرق ضلوعي:

"سهير! لقد قتلت أبي!"
اقترب مني أكثر:
"حجر النسيان يلتهم ذاكرتي أكثر فأكثر يا سهام. وقريبا لن أتذكر شيئًا عما مررت به. وأنت أيضًا. لكن شيئًا واحدًا أعرف أنني لن أنساه ما دمتُ حيا: أنت!"
هنا هتفت هند، وقد وجدت أن الموضوع قد تجاوز حده:
"مريم. مع من تتكلمين؟"
***

1 يناير 2016

عزيزتي سهام...
لابد أن دهشة حاتم كانت عظيمة عندما رآني أحمل حفيدته. صرخ بلوعة:
"بسمة!"
احتضنها بلهفة؛ فقلتُ مهونًا:
"برفق عليها. برفق."
"أين وجدتها؟"

"خلف جدار الجماجم!"

انتفض جسده الواهن. لم يتوقع أنه طوال فترة بحثه أن حفيدته محبوسة لدى الطيف الأزرق بأسفل. لو كان لديه احتمال 1% أنها موجودة بالمنزل بالفعل؛ لم يكن ليتركه لصاحب العقار ليقوم بتأجيره من جديد.

كانت بسمة شاحبة. نظراتها لجدّها تحمل الكثير من الأسف واندلم. لكنني كنتُ أعلم أنه قد غُرر بها.

الطيف الأزرق لا يعبث فيما يبدو.

كانت تُحتضر. حاتك يبقي كالأطفال، وأنا أعلم أن نفسها ستغادر جسدها في أي لحظة. صرختُ، وقد أخذتُ قراري:

"ابتعد عنها."

وأخرجتُ من جيبي القارورة.

"ما هذه؟"

"الطريقة الوحيدة لكي تُشفى حفيدتك."

وفتحتها، ورحتُ أسكب ما فيها في حلقها. كنتُ أعلم- بفرض صدق كلام الطيف- أنني أخسر فرصة نجاتي الوحيدة في هذا العالم. لكن لا بأس. لقد خسرتُ كل شيء، ومن الأفضل الاستسلام لما هو آت.

جلستُ مرهقًا في حجرة العجوز، المليئة باللوحات، وأنا أرمق الظلمة القادمة من الأفق من النافذة، إيذانًا

بقرب الليل. تحت منزلي توجد جثتان، وطيف غامض، وفتاة أحبها بجنون، رحلت إلى حيث لا يمكنني اللحاق بها.

مرة أخرى ارتطمتْ قدمي باللفافة المطوية، ويبدو انها كانتْ مطوية بإهمال، أو فُتحتْ حديثًا؛ فقد انفردتْ أمامى على الأرضية؛ لأتجمد في جلستي بذهول.

كانت صورة سهام!

قفزتُ من مكاني، وأنا أختطف اللوحة من الأرض، وأهرع للعجوز صارخا:

"من هذه الفتاة؟"

قال من بين دموعه:

"إنها مريم. الفتاة التي كنتُ أحبها في الماضى."

ثم كمن تذكر:

"من سمح لكِ بأن..."

قلتُ مقاطعا كلامه:

"إنها حبيبتي سهام. كيف لك أن تحبها في الماضي؟"

قال بحذر:

"هل أنت مجنون؟"

هنا سعلتْ بسمة. انتفض حاتم، وهو يحيط كتفها برفق:

"حبيبتي. هل أنت بخير؟"
قالت بوهن:
"لقد رأيتُ مريم يا أبي. الفتاة التي كنتَ تحكي لى كيف أحببتها بشدة. لقد أنقذِتني من الموت."
وأشارتْ إلى:
"وأنت أيضًا أنقذتني من الموت؟"
قال العجوز بحيرة:
"ما معنى هذا؟"
حكت له ما حدث في القبو؛ فبدا التأثر على وجهه المتغضن.
"لا أعرف ماذا أقول لك."
"فقط أخبرنى بقصة سهام. أقصد مريم."
"لقد كانت جارة لى في الماضي. وقد أحببتها بصدق."
"وما الذى حدث بعدها؟"
"ظهر لي الطيف الأزرق. مخلوق مخيف، هددني لو لم أتركها فسوف يدمر حياتي وحياتها؛ فبدأتُ أقطع علائقي معها تدريجيا. كنتُ أحميها دون أن تدرى. كنتُ أرسم صورها كثيراً، ثم أطويها بعيدا عن أعين الناظرين."
"متى حدث هذا؟"
تنهد:

"بعد لقائي الأخير بها. لقد كنا نتجادل بخصوص السحر، وكتاب ما كنتُ قد بحثتُ عنه بشغف قبل أن أراه صدفة في أحد الأكشاك."

وابتسم كمن يستعيد ذكرى سعيدة:

"لقد كنتُ أسير في الشارع عندما وجدتُ هذا الكشك. فتاة جميلة تقف فيه، ولفت نظرى قلادة عجيبة ترتديها، تمثل دائرة نصفها أبيض، والنصف الآخر أسود."

اعتدلتُ في جلستي، وقلتُ بسرعة:

"حقًا؟"

تذكرتُ في تلك اللحظة أن سيدة النور كانت ترتدى نفس القلادة، أو على الأقل تشبهها إلى حدٍ كبير.

أكمل العجوز:

"لقد أعطتنى الكتاب، وأخبرتنى أنهِ سيكون السبب في نجاة أقرب الناس إلي."

ثم رمقنى بحيرة:

"لكنى لم أفهم. كيف تكون موجودة هنا الآن؟"

قلتُ بحزن:

"لم تعد موجودة."

***

عندما عدتُ للمنزل الكئيب وجدتُ سيارة فاخرة تقف أمام المنزل، وكان يقف بجوارها السمسار.
قلتُ بقلق:
"خيرًا يا معلم؟"
"ثمة ضيف ينتظرك بالداخل يا أستاذ حسام."
"من؟"
"محمد بك، صاحب هذا المنزل."
وغمز بعينه:
"لا تقلق. فقد اهتممتُ بالمشاكل التي كانت تواجهك بالداخل."
هرعتُ للداخل، وعقلي يضرب أخماسًا في أسداس.
فور أن دخلتُ توقفتُ في مكاني مصعوقًا.
"أبو سهام!"
كان الرجل هو أبوك أو من تبناك. قلت، وأنا أشعر بالدوار:
"أنت صاحب هذا المنزل؟"
قال بحزن:
"كنتُ أعرف أنها سترحل للأبد هذه المرة. حاولتُ أن أخبرها أنني سأقابلها مرة أخرى في الماضي، وأنني سأكون شقيقها الصغير المشاكس، الذي لا يبادلها الودّ. لكنها في الحقيقة كانت أقرب الناس إلي، لكنني كنت

أحمق بما فيه، بحيث لم أدرك هذا إلا بعد فوات الأوان."

وسالت دموعه:

"هل تعلم ما هو المؤلم يا بني؟ المؤلم جدًا أنني ودعتها مرتين. مرة في الماضي، ومرة أخرى بالأمس. لكن الأكثر إيلاما أنني كنتُ أعرف أنني سأودعها في المرة الثانية، وأنها ستسافر للماضي لتقابلني، ولن تعرف أبدا من أنا."

***

عرفتُ ما هو المطلوب مني.

بعد أن قمتُ بتوديع أهلي عدتُ للمنزل مرة أخرى. الأفضل أن يعرفوا أنني سأرحل بعيدا، بدلًا من أن يعرفوا أن أيامي صارت معدودة في هذا العالم.

أكتب هذه الكلمات وأنا أقف أمام هذا الجدار بالحجرة التي شهدت لقاءنا الأخير. يقف الطيف، وهو يحرك يديه؛ فيبدأ الطلاء يتساقط عن الجدران الأربعة. تتكون دائرة نصفها أبيض، والنصف الآخر أسود.

قال لي مبتسما:

"أنت تعرف أن ذلك العالم في غاية الجنون والاضطراب. ليست لديك فكرة ماذا فعلتُ حتى نصل

إلى هذه النقطة. ما كان لي أن أعبر لذلك العالم المختبيء خلف الظلال، إلا بمعاونتك."

"لستُ مميزا في شيء."

"أنت مميز لأنك تحبها."

ثم اقترب مني، وقال:

"لكن في ذلك العالم واحد فقط سيظفر بقلبها."

"يهمني فقط أن تكون بخير."

"سنرى إن كنت مثاليا كما تقول، أم ستنضم للظلمة."

وغمز بعينه:

"كما فعلتْ هي من قبل."

فجأة، سمعتُ خطوات تقترب منا. توجستُ خيفة. فجأة ظهرتْ امرأة. امرأة، جميلة، ذات وجه صبوح، وترتدي قلادة على هيئة دائرة، نصفها أبيض، ونصفها أسود.

هتفتُ غير مصدق:

"أنت؟"

قال الطيفُ ببرود:

"ماذا تريدين؟"

قالت سيدة النور بهدوء:

"أحب أن أبعث برسالة لسهام مع حسام. هل لديك مانع؟"

لم ينطق الطيف الأزرق بكلمة.
قالت سيدة النور، وهي تبتسم لي:
"أتمنى أن يجد قلبك راحته ومرفأه يا صديقى."
وقربت فمها من أذني، وقالت بصوت متهدج:
"وأبلغ صديقتي العزيزة سهام، أو مريم سلامي ومحبتي. وأخبرها أننى فعلتُ كل ما يلزم طوال السنوات الماضية حتى لا تظل وحيدة في عالم الأطياف."
قلتُ متمتماً:
"هل أخبرها بأنك سيدة النور أم ماذا؟"
"فقط أخبرها باسَمي الحقيقي. هند."
***

10 نوفمبر 1934

أمى الحبيبة...
ها أنا ذا أسطّر آخر كلماتي. أجلس في القبو بسكون. وبجواري يجلس الطيف الأزرق، أو طارق. حبيبي السابق في حياتي الماضية. كنتُ أعرف أننى الوحيدة

التي تراه، بينما يهمس بأوامره لأتباعه، يعطيهم بعضًا من القدرات المذهلة كما فعل مع سهير.
أثناء جلوسي دخلت سهير، وهى تبتسم. قلتُ بكراهية:
"لقد قتلت أبي. أليس كذلك؟"
ضَحكت:
"أخيراً اكتشفت الأمر. ربما لا تعلمين أن عندي ولدًا منَ زوجي قبل السابق."
قاطعتها بسرعة:
"وهل قتلته هو الآخر؟"
قالت بصراحة:
"لقد فعلتْ. كان يخوننى مع سكرتيرته. إنه يستحق ما جرى له. هناك سموم ناقعات لا يكتشف أثرها."
وغمزت بعينها:
"كما فعلتُ مع أبيك."
قلتُ، وقد قررتُ أن أحرق قلبهَا، كما فعلت:
"بخصوص ولدكِ فأنا لا أعرفه. لكنى أعرف ولده."
قالت بحيرة:
"ماذا تقولين؟"
ثم ابتسمت بخبث:

"هل هي حيلة خرقاء من حيلك السخيفة أيتها المعتوهة؟ إن ولدي هذا في العاشرة من عمره."
"وسيتزوج، وسينجب ابنا يسميه شادي."
"وكيف لكِ أن تعلمي كل هذا؟"
"لأنني قابلتُ شادي هذا في المستقبل."
حدّقت في وجهي، كما تنظر إلى مجنونة. قلتُ مؤكدة:
"نعم يا سهير، أنا من المستقبل. وأعرف جيدًا مصيركِ. ستقتلين شر قتلة جزاء جرائمك التي ارتكبتها، من أجل المال، ومن أجل السلطة."
تجمدت ملامح سهير، ثم قالت بشماتة:
"لقد أفسدتِ الكتب عقلك، كما فعلتْ مع أمكِ من قبل."
شعرتُ بالنار تتأجج بداخلي. صرختُ:
"فريد!"
دخل فريد مسرعًا:
"مريم هانم!"
"خذها من أمامي الآن، قبل أن أتسرّع وآمرك بقتلها."
صرخت سهير:

"أنتِ أيتها الحشرة تأمرين بقتلي. ربما لا تعلمين أن الطيف الأزرق."
قاطعتها بحدة:
"الطيف الأزرق يجلس بجواري الآن."
للحظة بدت سهيرٍ غير فاهمة لما أقوله. وقبل أن تنطق بحرف، سمعت الطيف الأزرق يهمس بشيء ما لم أفهمه. في اللحظة التاليةٍ فرقع فريد أصابعه؛ فانكسر عنق سهير، وهوت أرضا، وعلامات الفزع وعدم التصديق على وجهها!
"مريم!"
على الباب تقف هند، وهي تضع يدها على فمها. همس الطيف الأزرق بكلمة أخرى، وهنا اندفعت بسرعة نحو فريد؛ لأرتطم به أرضا، وأنا أصرخ:
"إياك أن تفعلها!"
لكنه تِفادي وثبتى نحوه بمهارة، وفرقع أصابعه؛ فسمعت طقطقة تحطم عمودها الفقرى، والدماء تندفع من جوفها لِفمها بغزارة مخيفة.
صرخت بغضب:
"ماذا فعلتَ أيها الوغد الحقير؟"
اقترب منى الطيف:

"لابد أن تتحررى من كل ما يربطكِ بهذا العالم، إلا أنا."

تمتمتُ:

"أيها السافل المجنون!"

كانت هند في لحظاتها الأخيرة، ترتجف، وأنفاسها تعلو وتهبط.

"مريم! مريم! أنا أموت!".

ثم غابت في غيبوبة عميقة.

لم أكن أعرف ماذا أفعل. فجأة ومض شيء ما في ذهني. تركتُ هند أرضا، وقفزتُ نحو حقيبتي الصغيرة الموجودة بجواري، وقبل أن يفهم الطيف أو فريد ماذا سأفعل أخرجتُ الكتاب منه، وأخرجتُ علبة ثقاب، وأشعلتُ فيه النار.

كل هذا حدث في لحظات، وقبل أن يستوعبا ما حدث، راحت النيران تحرق الكتاب الذى لم يكن كتاباً، كما أخبرتني سيدة النور من قبل.

ولقد كانت على حق.

فالكتاب راح يتفحم، متحولاً في النهاية إلى حجر أزرق لامع. إلى حجر النسيان!

كان الحجر طريًّا كما لو كان قد صُنع لتوه من الطمى، وكانت هناك بعض القطرات السوداء تتساقط منه.

إكسير الشباب!

رحتُ أسكب القطرات في فمها، وأنا أقول:

"ستكوني بخير يا صديقتي."

وابتسمت، وأنا أهمس في أذنها:

"ستصيرين سيدة النور. فقط حاولي ألا تنسيني."

صرخ الطيف:

"ماذا فعلت؟"

قلت بشماتة:

"صنعتُ لك عدوا سيحاربك على هذه الأرض، ويفسد مخططاتك الشريرة."

قال، وهو يلوح بيديه:

"لا، لا. لا أريد المكوث في هذا العالم. أريد أن نذهب سويا لذلك العالم."

طعنته بالحجر في جسده الطيفي، وللدهشة فقد بدا جسده أشبه بجدار لدن، راح يتوهج، وسط صرخاته المجنونة.

"ستُحبس هنا، حتى تأتي ساعتك، أو حتى تجد طريقة لكي تلحق بي."

صرخ:

"سنتقابل مرة أخرى يا سهام. سنتقابل مرة أخرى، وعندئذ لن أرحمك."

قلت ببرود:

"ما هو آت آت."

تجمّد في وقفته، وصار أشبه بتمثال لا يرمش أو يتحرك، بينما كنت أكتب هذه الكلمات. سأطعن نفسي بالخنجر. سأعبر البوابة حيث عالم التماثيل الحجرية. ما الذى ينتظرني هناك؟ لا أعرف. المهم أن أجد راحتى المنشودة؛ فقد تعبت!

وداعًا يا أمي. أرجو أن نتقابل في عالم أفضل. فإلى الملتقي.

ابنتكِ سهام/ مريم

***

خاتمة

"لابد أن تخطو خطوة للأمام."
هكذا قالت أخته من قبل، وها هو ذا يفعلها، وإن كانت خطوة عملاقة جداً. خطوة من عالمه المألوف؛ لعالم آخر لا يعرف قوانينه.
فور أن تساقط الطلاء عن الجدران، وقف في نصف دائرة، بينما وقف الطيف الأزرق في نصف الدائرة الآخر.
فجأة، انسكب ضوء أزرق لامع، على الدائرة. قال الطيف الأزرق:
"هذه الدائرة تقوم مقام الصندوق. إلا أنها لن تذهب بنا إلى الماضي. ستذهب بنا إلى ذلك العالم."
لفّهما الضوء، وانطلق بهما. وجد أن سؤالًا ملحا يكاد يمزق عقله. قال:
"ما حكاية هذا الذئب؟"
قال الطيف بخبث:

"أي ذئب؟ أنا لم أر شيئًا."
"هذا الذئب الذى..."
ثم توقف وقد فهم.
قال بغيظ:
"إنه وهم. أليس كذلك."
قال الطيف:
"يقول ابن عطاء الله السكندري: ما قادك شيءٌ مثل الوهم."
قال حسام ساخراً:
"أرى أنك قد صرت مثقفاً، بدلًا من هوايتك في تسلق الدرجات الوظيفية."
"ثمانين عاما محبوسا تحت الأرض تجعل المرء عبقريا."
ودمدم بشماتة:
"وأياً ما كان سنواجهه هناك؛ فسأنتصر حتماً يا فتى. لا توجد لديك فرصة واحدة للفوز أو حتى النجاة."
"كل هذا فعلته من أجلها؟"
قال الطيف:
"إنه الحب. الحب هو أسمى ما يستحق القتال. كل شيء آخر زائل. كل شيء آخر مجرد طيف لا قيمة له."
"مثلك."

قال الطيف ببرود:
"سنرى."
***

عندما استيقظ كان يستلقى على ما يشبه أرضية مستشفى قذرة. كانت رائحة الموت تنتشر في كل مكان. وقف بصعوبة، وهو يشعر بآلام رهيبة في جسده. نظر من النافذة؛ فوجد أبنية شاهقة، ودخان هائل يملأ الأفق. همس:
"أي عالم هذا؟"
سمع أنيناً قادماً من آخر الممر. سار بحذر. ثم توقف أمام الحجرة. كانت فتاة، متغضنة الوجه، شاحبته، ذات عينين واسعتين، شابهما بياض مخيف. هتفت برعب:
"من هناك؟"
قال وهو يقترب منها مرتجفاً، غير مصدق ما يراه:
"سهام!"
كانت هي. ما زالت في شبابها، لكن جسدها مُحطّم، وعلامات الفزع على وجهها.
تمتمت:
"من؟ هذا الصوت مألوف!"
أحاط يده اليمنى بيديها، وقال مداعباً:



"لقد أمسكتِ يدك بالأمس لأول مرة في حياتي. هل نسيتَ بهذه السرعة؟
"حَس.. حسام؟!"
"أجل، حسام يا عيني حسام."
"لقد فقدتُ بصري يا حسام. لقد تأخرتَ كثيراً. لقد أذاقني طارق الويلات، وهربتُ منه أكثر من مرة في هذا العالم البشع. لقد تحولتُ لُحطام!"
قال بكراهية:
"لقد وصل قبلي إذن."
ثم ابتسم:
"لا تقلقي. لا هروب بعد الآن."
كادت تثب من سريرها، وهى تهتف:
"إنه قادم. إنه على بوابة المبنى مع مساعديه من الأشرار. اهرب يا حسام. اهربْ!"
وقف حسام. خطا بضع خطوات. ظنْت أنه ذهب بالفعل، وتركها وحيدة، لكنها فوجئت به يأتي من الناحية الأخرى، ويمسكٍ بيدها الأخرى، ويقول هامسا، مربتا على كتفها:
"اطمئني يا حبيبتي. كل شيء سيكون على ما يرام. كل شيء سيكون على ما يرام"

***


http://www.hakawelkotob.com
26 أبريل 2016
سيدة النور
عارف فكري
272


اقرأ المزيد على
www.hakawelkotob.com
عارف فكري